رحلة إلى ماليزيا

بسم الله الرحمن الرحيم

د.طارق البكري

رحلة إلى ماليزيا

رواية

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل الرقمي والمسرع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار الكتبي.

دار الكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

تَقْديم

بِقَلَم: النَّاقِد جَمِيل السَّلْحوت

شَخْصِيَّة القُدْسِ الثَّقافِيَّة

إِبْداعٌ جَديدٌ ومُتَجَدِّدٌ للدُّكْتورِ طارِق البَكريّ في إِصْدارِهِ الجَديدِ (رِحْلَةٌ إلى ماليزيا) يُؤَكِّدُ من جَديدٍ، أَنَّ لِدَى المُؤَلِّفِ الكَثيرَ الكَثيرَ لِيَقولَهُ لِلأَطْفالِ ولِلْيافعِينَ، فَيَأْتِينا بِجَديدٍ يُدْهِشُ الكِبارَ قَبْلَ الصِّغارِ، وما يَكْتُبُهُ لَيسَ من بابِ التَّسْلِيَةِ فَقَط، بل يَحْمِلُ في ثَناياهُ قِيَماً تَربويَّةً وتَعْلِيميَّةً.

ورِوايتُهُ هَذه تَعُجُّ بِقِيَمٍ إِيجابِيَّةٍ جاءَتْ من خِلالِ القَصِّ المشَوِّقِ دُونَ مُباشَرةٍ أو خطابِيَّةٍ، ممَّا يُرَسِّخُها في ذِهْنِ القارِئِ المُتَلَقِّي بِيُسْرٍ وسُهولَةٍ.

ومن هَذهِ القِيَمِ: أنَّ الإِنْسانَ في جَوهَرِهِ لا فِي

شَكْلِهِ الخارِجِيِّ، وأَنَّ الأَطْفالَ يُدْرِكونَ الأُمورَ على عَكْسِ ما يَعْتَقِدُ الكِبارُ. وأَنَّ المُطالَعَةَ تُغَذِّي العَقلَ وتَزيدُ المَعْرِفَةَ، وبِما أَنَّ الأَطْفالَ يَتَأَثَّرونَ بِالكِبارِ ويُقَلِّدونَهم، فَهُناكَ أَهَمِّيَّةٌ لِوجودِ مَكْتَبَةٍ في البَيتِ يُطالِعُ كُتُبَها الكِبارُ والأَطْفالُ. وعَلى الأَطْفالِ ألّا يَنْزَعِجوا من مُراقَبَةِ ذَويهِم لَهم، فَفي مُراقَبَتِهم مَنْفَعَةٌ لَهم.

كَما أَنَّ الرِّوايَةَ تُعَلِّمُ مُتَلَقِّيها أَهَمِّيَّةَ التَّسامُحِ وأَدَبَ الاعْتِذارِ عنِ الخَطَأ، والاسْتِئْذانَ عِنْدَ الحَديثِ، وآدابَ الطَّريقِ، واحْتِرامَ تُراثِ الآباءِ والأَجْدادِ.

ولا يَنْسَى الدُّكْتورُ البَكْري الأُمورَ الصِّحِّيَّةَ، فَيُحَذِّرُ من الأَطْعِمَةِ المُعَلَّبَةِ والجاهِزَةِ، ويَدْعُو إلى تَحْضيرِ الأَطْعِمَةِ وطَبْخِها في البُيوتِ، وعلى الأَبْناءِ أَنْ يَقْبَلوا بِشَهِيَّةٍ كُلَّ ما تَطْبُخُهُ أُمَّهاتُهُم لَهم.

وفي الرِّوايَةِ مَعلوماتٌ قَيِّمَةٌ مِنْها: اتِّساعُ البِحارِ وعَدَمُ مَحْدودِيَّتِها، وأَنَّ في جَنوبِ الكُرَةِ الأَرضِيَّةِ

وشَمالِها قُطْبَينِ مُتَجَمِّدَينِ، وأَنَّ السُّحُبَ مُحَمَّلَةٌ بِالمِياهِ، وأَنَّ الماءَ عِمادُ الحَياةِ، لِذا يَجِبُ الاقْتِصادُ في اسْتِهلاكِهِ مَهْما كانَتْ ثَرْوَةُ البِلادِ المائِيَّةِ. وأَنَّ الشَّمْسَ كَبيرةُ الحَجْمِ، وأَنَّ ضَوءَ القَمَرِ انْعِكاسٌ لأَشِعَّةِ الشَّمْسِ، وأَنَّ الكُرَةَ الأَرْضِيَّةَ والقَمَرَ تَدورانِ حَولَ الشَّمسِ.

وتَلْفتُ الرِّوايَةُ الانْتِباهَ إلى أَهَمِّيَّةِ الرِّحلاتِ الدَّاخِلِيَّةِ والخارِجِيَّةِ، فَفي الرِّحلاتِ تَرْفِيهٌ لِلنَّفْسِ وتَرْويحٌ عَنْها، وقَضاءٌ نافِعٌ لأَوقاتِ الأعيادِ والعُطلِ المدرسيّةِ وغيرِها، واكتسابُ مَعْلُوماتٍ ومَعارِفَ جدِيدَةٍ، كَما فيها دَعوةٌ للأطفالِ ولليافِعِينَ في كَيفيّةِ قَضاءِ أوقاتِ فَراغِهِم وعُطَلِهِمُ المَدْرَسِيَّةِ، مِن خِلالِ المُطالعَةِ في كُتُبٍ مُفيدَةٍ، أوِ العَمَلِ في أَماكِنَ تَتَلاءَمُ وقُدُراتِهِمُ الجَسَدِيَّةِ، كَالعَمَلِ في المَكْتباتِ مَثَلاً.

واللافِتُ في هَذِهِ النُّصوصِ أَنَّ صاحِبَهَا رَوَى عِدَّةَ

حكاياتٍ وقِصَصٍ، وحَبَكَها مَعَ بَعْضِها البَعْضِ بِسَلاسَةٍ فائِقَةٍ، لِتُشَكِّلَ رِوايَةً مُتكامِلَةً، يُمكِنُ الزّيادَةُ عَلَيها، أَوِ اخْتِصارُها دونَ التَّأْثِيرِ عَلَى حَبْكَتِها الرِّوائِيَّةِ، وهَذا دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ أَدِيبِنا عَلَى الإِبْداعِ الرِّوائِيِّ.

ويُلاحَظُ أَنَّ الدكتورَ البَكريَّ يَسْتَعْمِلُ لُغَةً انْسِيابِيَّةً سَهْلَةً عَلَى المُتَلَقِّي، وهِيَ لُغَةٌ مُشبَعَةٌ بِعُنْصرِ التَّشْوِيقِ، الّذي يُجبِرُ القارِئَ عَلَى مُتَابَعَتِها، وهُوَ سَعِيدٌ ومُسْتَمْتِعٌ بِذَلِكَ، وهَذَا مِنْ صِفاتِ الأَدَبِ الجَيِّدِ بِشَكْلٍ عَامٍّ، وأَدَبِ الأَطْفالِ بِشَكْلٍ خاصٍّ.

وَأَخِيراً فَإِنَّنا نُشَجِّعُ فِتْيانَنا العَرَبَ وكُلَّ مَنْ قَرَأَ العَرَبِيَّةَ في العالمِ، ونَدْعُوهُمْ إِلى قِراءَةِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ المُتَمَيِّزَةِ بِأُسْلُوبِها وَفَنِّها وأَهْدَافِها، بِاعْتِبارِها نَمُوذَجاً فَرِيداً لأَدَبٍ رَفِيعٍ لِلِيَافِعِينَ في عالَمِنا المُعاصِرِ.

❁ ❁ ❁

رِحْلَةٌ إلى مَالِيزيَا

١

مُغَامرَاتِي الرَّائِعَاتُ

كَثِيرَةٌ هِيَ حِكَايَاتِي وَمُغَامَراتِي الرَّائِعاتُ. مَليئَةٌ بِالمَرَحِ وَالفَرَحِ وَالتَّشْويقِ أَحْياناً، وبِالضَّحِكِ واللَّعِبِ أَحْيَاناً أخَرَ، وهَذَا يُلائِمُ طَبْعِي مُنْذُ الصِّغَرِ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكونَ عَلَى غَيرِ هَذِهِ الحَالِ.

طَبْعِي مُمْتَزِجٌ بِاللَّعِبِ وَالضَّحِكِ وَالفُكَاهَةِ، والنَّاسُ تَعْرِفُنِي بِذَلِكَ، فَأَنَا أَلْعَبُ وَأَضْحَكُ مَعَ الجَمِيعِ دَائِماً وفي مُخْتَلَفِ الظُّروفِ، كَما أَنِّي أَتَمَتَّعُ أَيْضاً بِرُوحٍ مُثَابِرَةٍ مَشْحُونَةٍ بِالجدِّ والإِصْرارِ والسَّعْيِ المُتَطلِّعِ بِثَباتٍ نَحْوَ تَحْقيقِ الغَايَاتِ.

لا أَهْتَمُّ بِالشَّكْلِ كَثِيراً، فَالشَّكْلُ الخَارِجِيُّ لَيسَ بِالضَّرُورةِ يُمَثِّلُ انْعِكاساً لِما في داخِلِ الإِنْسَانِ مِنْ

جَمَالٍ أو بَشَاعَةٍ، وأَنَا يُسْعدُنِي أَنْ يَهْتَمَّ الآخَرونَ بِشَخْصِي وَبِطَريقَةِ تَعامُلِي مَعَهُمْ، لَا بِمظْهَرِي الخَارِجِيِّ فَقَط، القَالِبُ مُهِمٌّ طَبعاً، لَكِنَّ الأَهَمَّ هُوَ القَلْبُ، وهَذَا لَا يَعْني أَنْ أُهْمِلَ أَنَاقَتِي، وَلا أَحَافظَ عَلى شَكْلِي وَهِنْدَامي.

بَل عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تَماماً؛ فَإِنَّ اهْتِمَامِي بِشَكْلِي لَا يَقلُّ بَتَاتاً عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ اهْتِمَاماً بِأَنْفُسِهِم وَأَنَاقَتِهِم وَهِندَامِهِم.

بَيْدَ أنَّ هَذا الاهْتَمامَ رَغْمَ مَكانَتِهِ عِنْدِي فَإِنَّهُ يَبْقَى في المَرْتَبَةِ الثّانِيَةِ، وَلا يُمْكِنُ أنْ يَتَعَدَّاها بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ لِيَصِلَ إلى المَرْتَبَةِ الأُوْلى.

صَحِيحٌ أَنَّ الشَّكْلَ مُهِمٌّ جِدّاً بِالنِّسْبَةِ لِلآخَرينَ؛ لَكِنَّ المَضْمُونَ بِرَأْيي هُو الأَهَمُّ عَلَى الإِطْلاقِ، وَأَنَا بِطَبِيعَةِ الحَالِ؛ يَهُمُّنِي المَضْمونُ مَهْمَا كانَ الأَمْرُ صَغِيراً بَسِيطاً، أَوْ بَدا تَافِهاً لِلبَعضِ.

وصَحِيحٌ أَنَّ الجَميعَ مِنْ حَولِي يُصِرُّونَ عَلَى مُعَامَلَتِي عَلَى أَسَاسِ أَنَّنِي مَا زِلْتُ طِفْلاً صَغِيراً؛ غَيرَ أَنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ العُمرَ يَجبُ أَلّا يُحسَبَ بِالسِّنين، بَلْ بِالتَّجْرِبَةِ وَالخِبْرَةِ، وَكَذلِكَ بِالمَضْمونِ.

يَزْعُمُونَ أَنِّي طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَلا يُنصِتونَ بِكَثيرٍ مِنَ الاهْتِمامِ لِمَضْمُونِ مَا أقولُ لَهم، ويَعْتَقِدونَ أَنَّ كَلامِي مُجرَّدُ كَلَامِ أَطْفالٍ، لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يُثيرُ غَضَبي، خاصَّةً أَنِّي أُثْبتُ لَهُم وفِي كُلِّ مَرَّةٍ؛ أَنَّهم لا يَعْرِفُون أَنَّ الأَطْفالَ «يَعْرِفونَ» أَكْثرَ مِمَّا يَظُنُّونَ.

يُرَدِّدونَ أَنَّ كَلامِي كَلامُ أَطْفالٍ، وَلَعِبُ أَطْفَالٍ، وَرُبَّمَا؛ تَفاهَةُ أَطْفَالٍ، وإِنْ لَمْ يَقولُوا ذَلِكَ عَلانِيةً.

هَذا مَا يَعتَقِدُونَه، أَمَّا أَنَا فَلا يَهُمُّني رَأيُهم ولا تَصوراتُهم، وفِي كلِّ مرَّةٍ أُثْبِتُ لَهمْ خَطَأَ تَفْكيرِهِمْ، وَصِحَّةَ تَفْكِيري.

وبِدونِ أَدْنَى شَكٍّ، فَهُمْ مُخْطِئونَ إِلَى حَدٍّ كَبيرٍ،

وَلا يَعرِفونَ إلَّا القَلِيلَ عَنِ الأَطْفالِ، وَلا يُقَدِّرُونَ خَيالاتِ الصِّغارِ.

وفِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ؛ فَإِنَّ الأَطْفالَ الذينَ يَسْتَصْغِرونَ شَأْنَهُمْ لَيْسُوا أَقَلّ شَأْناً مِنْهُمْ.

هُمْ يُنكِرونَ «جَهْلَهُمْ» لأَنَّهُمْ يَجهَلُونَهُ، أَوْ بِالأَحْرَى يَتَجَاهَلونَهُ، وَيُصِرُّونَ عَلَى عَادَاتِهِمُ «الجَاهِلَةِ»، وحجَجُ الضَّعِيفِ غالِباً ما تكونُ ضَعِيفَةً.

حاوَلْتُ مَرَّاتٍ وَمرَّاتٍ أَنْ أَسْقُطَ فِي عَالَمِهِمْ، وأَنْ أُشَيِّدَ أَحْلاماً مِنْ خَيَالاتٍ، أَنْسُجُها خَلْفَ الأَقْنِعَةِ المُتهاوِيَةِ مِثْلَ المَطَرِ.

كُنتُ أُنْصِتُ بِسُكونٍ لِكُلِّ الأَلْسِنَةِ المُتَبَدِّلَةِ المُتَصَنِّعَةِ، حَاوَلْتُ، لا أُنْكرُ أَنِّي حَاوَلْتُ، لَكِنِّي كُنْتُ أَفْشَلُ في كُلِّ مُحَاوَلَةٍ، بَلْ عِنْدَ دَرَجَاتِهَا الدُّنْيا.

يُكَرِّرُونَ أَنَّ كَلامِي كَلامُ أطفالٍ وتَفْكيري تَفْكيرُ أَطْفالٍ، وَفِي النِّهايَةِ يَكْتَشِفُونَ أَنَّ مَا قُلْتُه لَهُمْ كانَ

كلاماً صَائِباً راجِحاً، ومَعَ ذَلِكَ لا يَجرؤونَ عَلَى الاعْتِرافِ بِصَوابِيَّةِ مَا أَقولُ، وَيُصِرُّونَ عَلَى اسْتِنتَاجَاتِهِمُ السَّابِقةِ رَغْمَ ثُبوتِ خَطَئِها؛ مَعَ كُلِّ النَّصَائِحِ وَالتَّحْذِيراتِ، وَحتَّى التَّوَقُّعَاتِ.

وَأَزْمَتِي الكُبْرَى مَعَهُم أَنِّي أُتابعُ الأَحْداثَ في العالمِ بِلا انْقِطاعٍ، كَما أَنِّي أَقْرأُ سَاعَةً وَرَاءَ سَاعَةٍ، وِفي أَيِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ أَخْتَارُهُ، وَحَتَّى عَلَى طَاوِلَةِ الطَّعَامِ، وأَحْياناً في حَوضِ الاسْتِحْمَامِ.

وهَذِهِ مَسْأَلَةٌ قَدْ تُؤَرِّقُ البَعْضَ، وَرُبَّمَا تُزعِجُهُمْ أَوْ تُثيرُ غِيرتَهُم تَارَةً وَغَضَبَهم تَارَةً أُخْرَى، لأَنَّ القِرَاءَةَ ـ كَمَا يَقولونَ ـ مفتاحُ المَعْرِفةِ.

وَقِصَّتِي مَعَ القِراءَةِ قِصَّةٌ جَميلَةٌ، والقِصَصُ الجَميلةُ فِي حَياتنا نَادِراً مَا تُمْحَى.

بَدأَتْ قِصَّتي هَذِه مَعَ جَدِّي وَغُرْفَتِهِ السِّرِّيَةِ التي كانَ يَقولُ أَنَّها غُرْفةُ صَدِيقِهِ.

وَمَا زِلْتُ مُحِبَّاً لِلقِراءَةِ، وارِثاً هَذِهِ العَادَةَ عنْ جَدِّي، مُتَمَسِّكاً بها، عَادَةٌ لَا تَنْتَهِي، بِلَا تَردُّدٍ أَوِ انْقِطَاعٍ.

جَدِّي وَرِثَ الفَقْرَ عَنْ أَبِيهِ الغَنِيِّ بِعِلْمِهِ، فَوَرِثَ عَنْهُ حُبَّ العِلْمِ، فاغْتَنَى بِعِلْمِهِ وَجَدِّهِ وَكِفَاحِهِ. أَحَبَّ الحَياةَ فَأَحَبَّتْهُ.

عَلَّمَنِي أَنْ أَخَافَ اللهَ وَأُطِيعَهُ، كَمَا عَلَّمَنِي القَراءَةَ وَفُنونَها، وَعوَّدَني عَلَى احْترامِ الكتَابِ وتَقْديرِ الكُتَّابِ، ودَرَّبَنِي عَلَى القِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ، وَأَنْ أُحِبَّ الكِتَابَ ويحبَّنِي، فَصَارَ الكِتابُ رَفِيقِي الدّائِمَ وَمَا يزَالُ.

أَمَّا قِصَصي مَعَ أَبِي، وَبَابِ أَبِي، ورحلاتي مَعَهُ، فَلَها شَأْنٌ خَاصٌّ. فَهُوَ يَعامِلُني كَطِفْلٍ صَغيرٍ فِي الرَّابِعَةِ مِنْ عُمُرِهِ، أَقولُ لَهُ أَنَّ عُمرِي سَيُصْبِحُ قَريباً عَشرة أَعْوامٍ، فَيُصِرُّ علَى أَنّني مَا زِلْتُ طِفْلاً صَغِيراً قَليلَ المَعرفَةِ والخِبرَةِ في الحَياةِ.

وَعِنْدَما أَرْغبُ بِالذَّهابِ مَعَ أَصْدِقائي لِلتَّنزُّهِ فِي يَومِ العُطْلَةِ المَدْرَسِيَّةِ فِي نِهَايَةِ الأُسْبُوعِ، يَقُولُ لِي:

ـ يَجِبُ أَنْ يَكونَ مَعَكُمْ شَخْصٌ رَاشِدٌ كَبِيرٌ.

وَيَتطوَّعُ بِنَفْسِهِ لِيَذْهَبَ مَعَنا إِلَى الحَدِيقَةِ القَرِيبَةِ، أَوْ إِلى شَاطِئِ البَحْرِ، رَغْمَ مُعَارَضَةِ أُمِّي التي تَقولُ لَهُ بِصَوتٍ هَامِسٍ، وَهِيَ تَظنُّ أَنِّي لَا أَسْمَعُها:

ـ راقِبْهُ مِنْ بَعيدٍ، ولَا تَكُنْ ثَقِيلاً عَليهِ وَعَلى أَصْدِقائِهِ.

ويَظَلُّ أَبي يَهُزُّ رَأْسَهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، لَكِنَّهُ فِي النِّهايَةِ يَفْعَلُ مَا يَظنُّهُ الأَفْضَلَ.

بَعْضُ أَصْدِقَائِي لَا يُعْجِبُهُمُ الأَمرُ، لَكِنِّي لَا أُخْبِرُ أَبِي بِذَلِكَ لأَنَّه يَعرفُ ذَلِكَ بِالتَّأكِيد.

يَظَلُّ أَبِي يُرَاقِبُنَا عَن قُرْبٍ طِوَالَ الوَقتِ، مَثل حَارسٍ أَمِينٍ، وَأَرَاه يَهتَمُّ بَأَصْدِقَائِي كَمَا يَهتَمُّ بِي. وَهَذا فِي الحَقيقةِ يُسْعِدُنِي وَلا يُزْعِجُنِي.

إذا أَحْضَرَ شَيئاً لِي مِثْلَ أَكياسِ البَطاطا المُقَرمِشَةِ أَوِ الحَلْوَى اللَّذيذةِ، فَإِنَّهُ يُحضِرُ لِكُلِّ الأَصْدِقَاءِ الذينَ يَكونونَ مَعِي، مَهْمَا كانَ عَدَدُهُم.

اعْتَدْتُ عَلَى هَذِهِ الحَالِ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْتَرِضُ كَثيراً مادَامَ يُحْضِرُ لَنَا مَا يُسِرُّنا.

وَمَعَ العَادَةِ اسْتَسْلَمْتُ لِلأَمْرِ الوَاقِعِ، وَبَاتَ الأَمرُ طَبيعيّاً بِالنِّسْبةِ لِي.

أَمَّا آباءُ أَصْدِقائي فَقَدْ كَانُوا سُعداءَ بِذلِكَ، فَهُمْ يَطْمَئِنُّونَ أَكْثَرَ مَعَ وُجودِ أَبِي مَعَنا، وَيَعتَقِدونَ أَنَّنا لَنْ نَتَعَرَّضَ لِسوءٍ، ووُجودُ أَبِي مَعَنا ضَمانٌ لراحةِ بَالِهِم فِيما لَو حَدَثَ وَتَعَرَّضْنا لمُشْكِلَةٍ غيرِ مُتوَقَّعَةٍ.

لكِنِّي مَا زِلتُ مُصِرّاً عَلَى أَنِّي كَبيرٌ أَكْثر مِمَّا يُظَنُّ.

وفي آخِرِ مرَّةٍ أَخَذَنا أبي فِي سَيَّارتِه الكَبيرةِ الواسِعَةِ إلى حَديقةٍ عَامَّةٍ بَعيدةٍ.

وُكنَّا حَوالي سَبعةً مِنَ الأصْدقاءِ، وَفِيمَا كنَّا نَلعبُ

سَوِيًّا صَاح صَدِيقُنا عَبدُ الله الذي كَانَ مِنْ أشدِّ المُعتَرِضِينَ عَلى ذهابِ أبِي مَعَنا، لأَنَّنا بِاعْتِقادِهِ لا نَأخُذُ حُريَّتَنَا الكامِلَةَ في اللَّعِبِ. صَاح صَيحةَ ألمٍ وَوجع.

وَقَعَ عَبدُ الله مِن أعْلَى لُعبةٍ كانَ يَتأرجَحُ بِها، فَسقطَ على يَدِه وَانْكسَرتْ عِظامُها، فَصَارَ يَصْرخُ مِنَ الأَلَمِ.

بَادَر أبِي بِالاتِّصال فَوراً بِالإسْعافِ وَطلبَ مِنْ عِبد الله ألا يُحرِّكَ يَدَهُ أَبداً حتى يصلَ المُسعفونَ.

كَانَ صَدِيقي المَسْكِينُ يَئنُّ مِنْ شِدةِ الألَمِ، فجَلَسْنَا إلى جَانِبِه نُحَاوِلُ أنْ نُهدِّئَه وَنُواسِيهِ، فَتجمَّعَ النَّاسُ حَوالَينا.

ولمَّا وَصَلتْ سَيارةُ الإسْعَافِ قَامَ المُسْعفونَ بِحَمْلِهِ وَوَضْعِهِ دَاخِلَ السَّيارَة لِنقلهِ إلى المُسْتَشْفى، وَركِبْنَا نَحنُ في سِيّارَةِ أبِي نُسَابِقُ السَّياراتِ خَلفَ سَيَّارَةِ الإسْعَافِ.

وَفِي المِسْتشفى اعْتَقَدَ المُسْعِفُونَ وَالمُمَرِّضُونَ وَالأَطِبَّاءُ أَنَّ أَبِي هُوَ وَالِدُ صديقي عبدِ الله مِنْ شِدةِ قَلَقِهِ وَتَوَتُّرِهِ.

وَكَانَ أَبِي بِالفِعل شَديدَ القَلَقِ عَليهِ، وَسَابقَ الرِّيحِ مِنْ أَجْلِهِ، حتَّى إنَّه نَسِيَ أَنْ يَتَّصِلَ بِأُسْرَتِه، فِيمَا كنتُ أَنَا وَأَصْدِقائي خَائِفين، وَلَا نَعرفُ كَيفَ نَتصرَّفُ.

وَمَضَى وَقتٌ لَم نَستطعْ فِيهِ أَنْ نُكلِّمَ أَبِي، إِلَى أَنْ خَرَجَ عَبدُ الله مِنْ غُرفةِ العَمَلياتِ وَيدُه كلُّهَا مَحشورةٌ فِي قَالبٍ طِيني نَاصِعِ البَيَاضِ، وأَخْبَرَنَا الطَبيبُ أَنَّه لا خَطَر عَليه، وأَنَّ بِإِمْكَانه الخُروج مِنَ المُستشفى.

فشَكَر أبي الطبيبَ وَأَنهَى مُعامَلاتِ المستشفى بَعدَ أَنْ سجَّلَ الأَمْرَ على أَسَاس أَنَّه حَادِثٌ، وكانَ عَبدُ الله مُمتناً كَثيراً لأبي، وآسِفاً لأَنَّه لمْ يَكن يَرغب ببقائِه مَعَنا فِي رَحلاتِنا وُنزهاتنا. تكلم عَبد الله شاكراً لأبي ما فَعله، فقال لهُ:

ـ المُهمُّ الآنَ أنَّك بخيرٍ.

فَحَمدْنا اللهَ على نِعمهِ الكثيرةِ، ثمَّ خَرَجنا مِن المستشفى، ورافقْنا عَبدَ الله إلى بيتِهِ بِسيارةِ أبي، وَعِنْدَمَا وَصلنا إلى المَكانِ المقصودِ فوجئَ جميعُ أفرادِ أسْرَتِه بِمَا حدثَ، وَشَكروا والدي كثيراً.

كنتُ فَخوراً جداً، وَكلُّ أصدقائي ظلوا يتحدَّثونَ عنِ الحَادثِ عدَّةَ أيامٍ متتالياتٍ، ووَصلَ الخَبَرُ إلى إدارةِ المَدرسَةِ التي قرَّرتْ تَكريمَ أبِي عَلى عَمَلِه فِي إنقاذِ صَديقِي عَبدِ الله.

كنتُ وَمَا زِلتُ فخوراً أشدَّ الفخر بِأبي، لِكنَّ هُناك مُشكلةً صَغيرةً وَوحيدةً مَعَه؛ فَهو مَا زَالَ مُصِرَّاً على أنَّني طِفْلٌ صَغير، وهذه مُشكلةٌ تزعجني وَتؤرقني، ولا بد من أنْ أسْعَى إلى تَغييرِ هَذه الفِكرةِ. لكنْ ما هو السَّبيلُ لتحقيقِ هذهِ الغايةِ؟!

❀ ❀ ❀

يَومُ مِيلادِي العَاشِرُ

عَشْرَةُ أَعْوامٍ انْقَضَتْ مِنْ عُمُرِي.

أَصْبَحَ عُمُري الآنَ عَشْرَةَ أَعْوامٍ بِكُلِّ فَخْرٍ.

قَدْ يَكونُ حِسَابُهَا طَويْلاً فِي أَوْرَاقِ الزَّمَنِ، لَكِنَّهُ قَصِيرٌ فِي أَوْرَاقِ الحَيَاةِ، فيَا لَهُ مِنْ زَمَنٍ طَوِيلٍ مَدِيدٍ قَصِيرٍ، فَبِالرَّغْمِ مِنْ طُولِهِ قِيَاسَاً وعَدَداً؛ فَإِنَّهُ مَرَّ سَرِيْعاً بِغَيرِ وَجَلٍ وَلا تَرَدُّدٍ وَلا تَرَاجُعٍ، بِلا حَولٍ لِي وَلا قُوَّةٍ.

الأَيَّامُ تَنْتَهي وَالوَاجِباتُ وَالأَعْمَالُ لَا تَنْتَهِي، فَفِي كُلِّ يَوْمٍ هُنَاكَ جَدِيدٌ.

عَشْرَةُ أَعْوامٍ بِالتَّمامِ وَالكَمَالِ، مَرَّتْ أَمَامِي في عُجَالَةٍ بِلا تَمَهُّلٍ وَلا انْتِظارٍ، مِثْلُ الرِّيحِ العَاصِفَةِ أَوِ السَّهْمِ العَابِرِ، أَوْ كَمَا يُقَالُ: «أَسْرَعُ مِنْ بَرْقٍ».

جَاءَ يَومُ مِيلادِي الذي يُصَادِفُ مِثلَ كُلِّ عَامٍ فِي بِدَايَةِ فَصْلِ الرَّبِيعِ، حِينَ يَكونُ الطَّقْسُ جَمِيلاً، وَالأَجْواءُ عَطِرَةً، والزُّهُورُ نَدِيَّةً، والأَرْضُ خَضْراءَ، وتَبْدَأُ مَعَ هَذِهِ الأَجْواءِ البَدِيعَةِ أَيَّامُ عُطْلَةِ المَدْرَسَةِ الرَّبِيْعِيَّةِ.

مِنَ الجَمِيلِ أَنْ يُولَدَ الإِنْسانُ مَعَ الرَّبِيعِ، وفِي مِثْلِ هَذا الوَقْتِ بِالتَّحْديدِ مِنَ العَامِ، فَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ اليومَ الرَّبِيعيَّ أَكْثرُ انْشِراحاً مِنْ أَيِّ يَومٍ آخَرَ مِنْ أَيَّامِ فُصُولِ العَامِ الأَرْبَعَةِ. صَحِيحٌ أَنَّ لِكُلِّ شَهْرٍ فَضْلهُ، وَلكُلِّ أَيَّامِ العَامِ مِيزَاتُها، لَكِنْ لِلرَّبِيعِ سِحْراً خَاصَّاً وَنَكْهَةً فَرِيدَةً.

وَلِذَلِكَ فَهمْ يَقُولُون: «رَبِيعُ العُمرِ، ورَبِيعُ الحَياةِ»؛ لأَنَّ الرَّبِيعَ مُرْتَبِطٌ بِكُلِّ ما في الحَياةِ مِنْ عَطاءٍ ونَمَاءٍ، فِيهِ تُزْهِرُ الأَشْجَارُ وَتَتَفَتَّحُ البَراعِمُ وَتُثْمِرُ، وَفيهِ تَبْدُو الطَّبِيعَةُ ضَاحِكَةً فِي أَبْهَى صُوَرِها وَأَجْمَلِ حلَلِها.

فَمَا أَجْمَلَ الرَّبيعَ! الفَصْلَ الَّذي وُلِدْتُ فِيهِ!

وكُنْتُ أَتَرَقَّبُ وُصُولَ هَذا اليَومِ بِصَبْرٍ وأَناةٍ بَالِغَينِ وَشَغَفٍ كَبِيرٍ، لأَكْتَشِفَ كَيفَ سَيكُونُ يَومُ مِيلادِي هَذا العَام، وَمَعَ كُلِّ هَذَا التَّرَقُّبِ لمْ أَتَوَقَّعْ بَعْدمَا حَضَرْتُ في الشُّهورِ الأَخِيرَةِ أَعْيادَ مِيلادِ أَبْناءِ عُمُومَتي أَكْثرَ مِنْ أَنْ يُحْضِرُوا لِي كَعْكَةً كَبيرَةً، وَأَنْ أَسْمَعَ كَلِماتٍ جَمِيلَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ.

وأَنْ أَرَى عَشْرَ شَمْعاتٍ كَبيراتٍ مُلَوَّناتٍ جَمِيلاتٍ، ثمَّ أَسْمَعُهُمْ يُصَفِّقونَ لِي وَأَنَا أُطْفِئُ هَذِهِ الشَّمْعاتِ؛ شَمْعَةً شَمْعَةً، وَالأَجْمَلُ مِنْ هَذا كُلِّهِ تَمْزِيقُ الأَوْرَاقِ الجَمِيلَةِ التي تُغلِّفُ علَبَ الهَدَايا.

كُنْتُ فَخُوراً جِدّاً بِنَفْسِي، فَقَدْ أَصْبَحَ عُمَرِي عَشْرَة أَعْوامٍ كَامِلاتٍ.

وَكانَتِ المَفاجَأَةُ التي لمْ أَتَوَقَّعْها؛ «رِحْلَةَ سَفَرٍ». ولَيسَتْ رِحْلَةَ سَفَرٍ عَادِيَّةٍ، بَلْ رِحْلَةٌ إِلى مَالِيزيا، بَلَدِ العَجائِبِ والغَرَائِبِ والطَّبِيعَةِ الخَلّابَةِ.

أَعْلَنَتْ أُمِّي عَنْ هَذِهِ الرِّحْلَةِ أَمَامَ أَبنَاءِ عُمُومَتِي والأَصْدِقَاءِ الَّذينَ حَضَروا حَفْلَةَ يَومِ مِيلادِي، وَعَدَتْني فِي هَذِهِ المُنَاسَبَةِ بِالسَّفَرِ إِلى مَكانٍ مُخْتَلِفٍ، وقَالَتْ أَنَّنَا سَنُسَافِرُ مَعاً فِي عُطْلَةِ الرَّبيعِ المُقْبِلَةِ إِلى مَالِيزيا، فَصَفَّقَ الجَمِيعُ بِلا انْقِطاعٍ. أَمَّا أَنَا فَقَدْ فَرِحْتُ فَرَحاً لا يُوصَفُ عِنْدَمَا سَمِعْتُ اسْمَ مَالِيزيَا، وَصَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوتِي:

ـ مَالِيزيَا مَرَّةً وَاحِدَة!؟

كَانَ طَبِيعياً أَنْ أَفْرَحَ وَأَنْفعِلَ؛ لأَنَّ مَالِيزيَا مِنْ أَجْمَلِ دُوَلِ شَرْقِ آسيا، وشَعْبُها كَرِيمٌ مِضْيَافٌ، وتَتَمَيَّزُ بِطَبِيعَتِها السَّاحِرَةِ، وَجَوِّها البَدِيعِ، وَتَتَمَيَّزُ أَيْضاً بِجَمَالِ بَحْرِهَا وَجِبَالِها وَسُهُولِها، وَتَنْظِيم مُدُنِها مِنْ حَيثُ عُمْرانِها الحَدِيثِ.

وَكانَ أَبِي وأُمِّي أَخْبَرَاني سَابِقَاً بِأَنَّهُما أَمْضَيَا شَهْراً كَامِلاً بَعْدَ زَوَاجِهِما في مَالِيزيا، وأَنَا بِطَبِيعَتي لَدَيَّ

شَغَفٌ بِمُتَابَعَةِ الأَشْياءِ المُمَيَّزَةِ عَبْرَ التِّلِفِزْيونِ أَوِ الإِنْتَرْنِت.

وَعِنْدَما عَلِمْتُ بِخَبَرِ الرِّحْلَةِ لَمْ أَكْتَفِ بِمَعْلُومَاتِي السَّابِقَةِ عَنْ تِلْكَ الدَّوْلَةِ، فَقُمْتُ فَورَ انْتِهاءِ الحَفْلَةِ بِالبَحْثِ عَمَّا يَحْتَويهِ الإِنْترْنِت مِنْ مَعْلوماتٍ عَنِ الأَمَاكِنِ الجَمِيلَةِ وَالمُتَمَيِّزَةِ الَّتي تَحْتَويها مَالِيزيا.

ولَمْ أَسْتَطِعِ النَّومَ تِلْكَ اللَّيلَةِ بِسُهولَةٍ، لِشِدَّةِ مَا كُنْتُ مُتَحَمِّساً لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ الجَدِيدَةِ.

وَفِي اليَومِ التَّالي بَدَأْتُ أُحَضِّرُ نَفْسِي لِلسَّفَرِ، وَأَخْبَرْتُ أَصْدِقائِي بِأَنِّي سَأَقْضِي عُطْلَةَ الرَّبِيعِ فِي مَالِيزيا.

وقَدْ فَرِحُوا بِذَلِكَ؛ لأَنَّ مَالِيزيا بَلَدٌ يَحْتَوي عَلَى أَشْياءَ عَدِيدَةٍ فَرِيدَةٍ لِلسِّياحَةِ والمَرَحِ والتَّرْفِيهِ.

ولَمْ يَكُنْ هُناكَ مَا يُزْعِجُني بِالمَوضوعِ سِوَى أَمْرٍ وَاحِدٍ؛ كَيفَ أُسَافِرُ وَصَدِيقِي خالِدٌ غَضْبَانُ مِني؟!

مَعَ أَنِّي اعْتَذَرْتُ مِنهُ، وبَرَّرْتُ لَهُ مَوْقِفِي حِيَالَ خِلافٍ بَسِيطٍ وَقَعَ فِيما بَيْنَنا دُونَ قَصْدٍ مِنِّي، لَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلِ اعْتِذاري.

فَكَيفَ أُسَافِرُ دُونَ أَنْ يَصْطَلِحَ الأَمْرُ بَينِي وَبينَهُ؟ وَكانَ هَذَا الأَمْرُ مِنْ أَشَدِّ الأُمُورِ إِزْعَاجاً لِي، وَسَبباً لِقَلَقِي.

مِنْ جَانِبِي لَمْ أَكُنْ أَشْعُرُ بِأَنِّي سَبَبُ المُشْكِلَةِ، لِذَا فَكَّرْتُ بِضَرورَةِ الإِسْراعِ وتَبْدِيدِ سُوءِ الفَهْمِ الَّذِي حَدَثَ، فَالرِّحْلَةُ إِلى مَالِيزيَا طَويلَةٌ وَبَعِيدَةٌ، وَلَا يَجْدُرُ بِي أَنْ أُسَافِرَ وصَدِيقي غاضِبٌ مِنِّي.

لَمْ أَشُكَّ لَحْظَةً بِأَنَّ أُمِّي سَتَنْكُثُ بوَعْدِها. فَأَنَا أَثِقُ بِأَنَّها سَتُحَقِّقُ لِي مَا وَعَدَتْنِي بِهِ بِأَنَّ الرِّحْلَةَ هَذِهِ سَتَكُونُ أَجْمَلَ الرّحلاتِ. فَهِيَ تُنَفِّذُ دَائِماً جَمِيعَ وُعُودِها، ومِنَ الأَقْوالِ المُحَبَّبَةِ إِلَيها: «الوَعْدُ عَهْدٌ» و«وَعْدُ الحُرِّ دَيْنٌ».

لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ، وَذلِكَ لِمَا أَشْعُرُ بِهِ مِنْ ضِيقٍ بِسَبَبِ خُصُومَتِي مَعَ صَديقي خَالِدٍ. لِذا قَرَّرْتُ الإِقْدَامَ سَرِيعاً، وفِي أَوَّلِ فُرْصَةٍ سَانِحَةٍ، عَلَى خُطْوَةٍ تُعِيدُ صَداقَتَنا إِلى سابِقِ عَهْدِها، ومَا كانَتْ عَلَيه مِنْ حُبٍّ وَتَفاهُمٍ وَوِئامٍ.

❁ ❁ ❁

حَدِيثُ الفَصْلِ

تَجارِبُ كَثِيرَةٌ نَمُرُّ بِها، بَعْضُها جَمِيلٌ وَبَعْضُها يَضِيقُ بِهِ الصَّدْرُ، ومِنْ كُلِّ تَجْرِبةٍ نَتعلَّمُ، فَالتَّجْرِبَةُ خَيرُ بُرْهانٍ، وَهِيَ قَدْ تَكُونُ مِحْنَةً، أَوْ رُبَّما مُصِيبَةً. لَكِنْ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَيها، لأَنَّها تَزِيدُهُ قُوَّةً وَعَزِيمَةً، كَمَا تَزِيدُهُ ثِقَةً بِنَفْسِهِ، وهَذِهِ الثِّقَةُ يَجِبُ أَلّا تَتَأَثَّرَ سَلْباً بِمَا يَضُرُّنا، وَعَلَينا أَنْ نَطْمَئِنَّ وَنُؤْمِنَ بِأَنَّ الدَّهْرَ مُعَلِّمٌ حَكِيمٌ.

قُلْتُ ذَلِكَ في صَبَاحِ اليَومَ التَّالِي، وَأَنَا فِي صَفِّي بِالمَدْرَسَةِ، خِلالَ فُرْصَةٍ قَصِيرَةٍ بَعْدَ انْتِهَاءِ الحِصَّةِ الثَّالِثَةِ، وَقَبْلَ بَدْءِ الحِصَّةِ الرَّابِعَةِ.

فَأَجَابَنِي طَلالٌ وَكَانَ أَوَّلَ المُتَكَلِّمِينَ:

ـ نِعْمَ القَوْلُ يَا صَالح، والخَيرُ أَنْ يَبْدَأَ الإِنْسانُ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يُعَلِّمَ الآخَرِينَ، فَـ

«العِلْمُ يَرْفَعُ بَيتاً لَا عِمادَ لَه».

قُلْتُ لَهُ:

ـ صَدَقْتَ يَا طَلال، وَصَدَقَ الشَّاعِرُ، وَهَلْ هُنَالِكَ أَفْضَلُ مِنْ مُعَلِّمِ نَفْسِهِ، ومِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيرَ؟!

ثمَّ الْتَفَتَ طَلالٌ إِلَى يَمِينِهِ وقَالَ:

ـ أَلا تَتَّفِقُ مَعَنا يَا جَابِرُ؟

ـ واللهِ إِنَّ مَا تَقُولانه صَحِيحٌ وعَينُ الحَقِّ.

جُمْلَةٌ قَصِيرَةٌ مُقْتَضَبَةٌ قَالَها جَابِرٌ، لَكِنَّهَا كَانَتْ تَعنِي الكَثِيرَ.

وَهُنا وَقَفَ عَادِلٌ وَدَنَا مِنْ بابِ الفَصْلِ، ونَظَرَ خارِجاً، ثمَّ قَالَ:

ـ يَبْدُو أَنَّ الأُسْتاذَ سَيَتَأَخَّرُ، لَيسَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ لا

يَأْتي في المَوْعِدِ. أَرْجُو اللهَ أَنْ يَكُونَ بِخَيرٍ، وأَنْ يَحْفَظَهُ فِي كُلِّ حَالٍ وَحِين.

فَقَالَ الجَمِيعُ:

ـ آمِين.

وأَضَافَ عَادِلٌ:

ـ الأُسْتَاذُ فَاضِلٌ اسْمٌ عَلَى مُسَمًّى، طَيِّبُ القَلْبِ، فَاضِلُ الأَخْلاقِ، مُحِبٌّ لِلجَمِيعِ، وَهوَ أَيْضاً شَدِيدُ الحِرْصِ عَلَى نَجاحِنا وَتفَوُّقِنا.

مَا كادَ عَادِلٌ يُكْمِلُ جُمْلَتَهُ حَتَّى دَخَلَ مُشْرِفُ الفَصْلِ، فَخَيَّمَ الهُدُوءُ التَّامُّ عَلَى المَكَانِ، ولمْ يَقْطَعْهُ سِوَى كَلامُ المُشْرِفِ نَفْسِهِ حِينَ قَالَ بِجُمْلَةٍ واحِدةٍ قَصِيرَةٍ صَارِمَةٍ:

ـ الأُسْتاذُ فَاضِلٌ سَيتَأَخَّرُ عَلَيكُمْ مُدَّةَ رُبْعِ سَاعَةٍ تَقْرِيباً لأَمْرٍ طَارِئٍ، لَيَجْلِسْ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ فِي مَكانِهِ، لَا أُرِيدُ سَمَاعَ أَيِّ صَوتٍ.

قَالَ المُشْرِفُ ذَلِكَ ولمْ يَنْتَظِرْ رَدّاً مِنْ أَحَدٍ، ثمَّ خَرَجَ عَلَى الفَوْرِ دُوْنَ أَيِّ اهْتِمَامٍ، فَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الفُصولِ، ولَدَيهِ الكَثيرُ مِنَ المَهامِّ في المَدْرَسَةِ.

هَكَذا هُمُ المُعَلِّمُونَ والمُرَبُّونَ والمُشْرِفونَ عَلَى التَّعْلِيمِ؛ يَعْمَلُونَ كَثِيراً وَيتْعَبونَ كَثِيراً مِنْ أَجْلِ طُلّابِهِمْ.

وبَعْدَ ذَلِكَ سَادَ الفَصْلَ صَمْتٌ مُهِيبٌ، كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَّا يَتَرَقَّبُ الآخَرَ أَنْ يُبَادِرَ بِكَلِمَةٍ أوِ اقْتِرَاحٍ أَوْ فِكْرَةٍ، وأَهَمُّها طَبْعاً مُغَادَرَةُ الفَصْلِ، والخُروجُ إِلَى بَاحَةِ المَدْرَسَةِ.

هُنا شَعَرْتُ أَنَّ الفُرْصَةَ بَاتَتْ سَانِحَةً، ويَجِبُ أَنْ أَسْتَفِيدَ مِنْهَا لأُصْلِحَ مَا تَصَدَّعَ بَيني وَبينَ صَدِيقي خَالِدٍ.

الوَقْتُ قَصِيرٌ، والأُسْتاذُ فَاضِلٌ سَيَحْضُرُ سَرِيعاً، كَمَا أَنِّي خِلالَ أَيّامٍ سَأُغَادِرُ فِي رِحْلَةٍ إِلى مَالِيزيا، ولا أُرِيدُ السَّفَرَ وَأَنا عَلَى خِصَامٍ مَعَ خَالِدٍ، الفُرْصَةُ الآنَ

أَمَامِي وَاضِحَةٌ وَيَسِيرَةٌ، وَهِيَ فُرْصَةٌ رُبَّما لَنْ تُسْنَحَ مَرَّةً ثَانِيَةً في الأَيَّامِ المُقْبِلَةِ التي تَسْبِقُ مَوْعِدَ سَفَري، لِذَا يَجِبُ أَنْ أُقْدِمَ عَلَى طَرْحِ المُشْكِلَةِ وبِجُرْأَةٍ، مَا دَامَ خَالِدٌ مَوْجُوداً بَيْنَنَا؛ حَتَّى يَسْمَعَ الكَلامَ ويُدْرِكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَقْصدُ الإِسَاءَةَ إِلَيهِ أَبَداً.

بَدَأْتُ حَدِيثِي بِصَوتٍ هَادِئٍ مُنْخَفِضٍ قَائِلاً:

ـ أَعَانَ اللهُ أُسْتاذَنا الطَّيِّبَ، وَاجِبَاتُهُ كَثيرَةٌ، وَالكُلُّ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِعِلْمِهِ. جَزَاهُ اللهُ خَيرَ الجَزاءِ.

الجَمِيعُ:

ـ نَعَم، صَحِيحٌ، بَارَكَ اللهُ بِهِ، فَضْلُهُ مَعْروفٌ.

ثُمَّ عَمَّ الصَّمْتُ مِنْ جَدِيدٍ.

أَرَادَ بَعْضُ الطُّلّابِ الخُروجَ إِلى مَلْعَبِ المَدْرَسَةِ، فَقُلْتُ لَهُمْ:

ـ انْتَظِروا قَلِيلاً أَيُّها الأَعِزَّاءُ، انْتَظِرُوا.

كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ يَبْقَى الجَمِيعُ فِي الفَصْلِ، فَقُلْتُ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ الجَمِيعُ:

ـ يَا شَباب، انْتَظِروا، أُرِيدُ أَنْ أَطْرَحَ عَلَيكُمْ مُشْكِلَةً مُهِمَّةً، فَأَرْجُو مِنْكُمْ أَنْ تَسْمَعُوا كَلامِي بِاهْتِمامٍ وَتُنْصِتُوا لَهُ بِجَدِّيَّةٍ، أُرِيدُ أَنْ نُناقِشَ المُشْكِلَةَ مَعاً وَتُساعِدونِي فِي حَلِّهَا، فَعَسَى أَنْ أَجِدَ لَدَيكُمُ الحَلَّ الذي أَبْحَثُ عَنْهُ.

أَبْدَى الأَصْدِقاءُ اهْتِماماً بِكلامِي، وَعَادُوا جَمِيعاً إِلى مَقَاعِدِهِمْ لِسَماعِ المُشْكِلَةِ، والنَّاسُ ـ كَمَا هُوَ مُعْتَادٌ ـ يُحِبُّونَ مَعْرِفَةَ مُشْكِلاتِ الآخَرِينَ وإِبْداءَ الرَّأْيِ فِيها، والبَحْثَ عَنْ حُلُولٍ لهَا، وَطَرْحَ رَأْيِهِمْ بِتَفَاصِيلِها.

قَالَ عَبْدُ اللهِ:

ـ لا بَأْسَ! يَبْدُو أَنَّ الجَمِيعَ يُسْعِدُهُمُ الاسْتِماعَ والمُشَارَكَةَ، فَلَدَيْنا مُتَّسَعٌ مِنَ الوَقْتِ. مَا هِيَ المُشْكِلَةُ يَا صَالح؟ هَيّا تَكَلَّمْ، وكُلُّنا آذانٌ صَاغِيَةٌ.

وفِيما الطُّلّابُ يَتَرَقَّبونَ في مَقَاعِدِهِمْ قَالَ حَمَدٌ ضَاحِكَاً:

ـ قُولُوا خَيراً إِنْ شَاءَ اللهُ.

تَنَحْنَحْتُ ثمَّ قُلْتُ بِصَوْتٍ عَالٍ:

ـ قَبْلَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ وَقَعَ بَيني وَبَينَ أَحَدِ الأَصْدِقاءِ خِلافٌ صَغِيرٌ، لَكِنَّهُ تَطَوَّرَ إِلَى خِصَامٍ، ورَفَضَ صَدِيقِي بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُكَلِّمَني ويَسْمَعَ رَأيي، وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُوَضِّحَ لَهُ مَوقِفِي كَيْ لا يَحْكُمَ عَلَيَّ بِالخَطَأِ، لَكِنَّهُ رَفَضَ أَنْ يَسْمَعَ قَوْلِي.

يَتَدَخَّلُ إِحْسَانُ مُعَلِّقاً:

ـ مَهْمَا كَانَ الأَمْرُ يَجِبُ أَلّا يَتَحَوَّلَ الخِلافُ إِلى خِصَامٍ وَعدَاءٍ بَينَ الأَصْدِقاءِ، لأَنَّ التَّفاهُمَ والبَحْثَ عَنِ الأَعْذارِ وَالتَّراحُمَ فِيما بَيْنَنا أُمُورٌ ضَرورِيَّةٌ، لَكِنْ مَا هُوَ سَبَبُ الخِلافِ الَّذي حَدَثَ فَأَدَّى إِلى صِدَامٍ؟

فَقُلْتُ لَهُ:

ـ الأَمْرُ يا إِحْسان ـ وَبِكُلِّ صَرَاحَةٍ ـ حَدَثَ بِسَبَبِ خَطَأٍ غَيرِ مَقْصودٍ مِنِّي أَنَا، وَلَيسَ مِنْ صَدِيقي.

كُلُّ الأَصْدِقاءِ اشْتَدَّ انْتِباهُهُمْ لِلحَدِيثِ أَكْثَر.

فَتَابَعْتُ قائِلاً:

ـ لَقَدْ كَتَبْتُ تَغْرِيدَةً أَوِ اثْنَتَينِ انْتَقَدْتُ فِيهِما بَعْضَ المَواقِفِ الخَاطِئَةِ لِدَى الشَّبابِ؛ مِثْل التَّصَرُّفِ المُسْتَهْتِرِ فِي المُجَمَّعاتِ، وَعَلَى البَحْرِ، وفي بَعْضِ الشَّوارِعِ، وَلَا سِيَّمَا قِيادَةُ الدَّرَّاجَاتِ النَّارِيَّةِ بَينَ المَرْكَباتِ، والتَّنَقُّلُ مِنْ حَارَةٍ إِلَى أُخْرَى دُونَ مُرَاعَاةٍ لِسَلامَةِ الآخَرِينَ.

وأَوْضَحْتُ لَهُمْ أَنِّي كَتَبْتُ ذَلِكَ إِيْمَاناً مِنِّي بِأَهَمِّيَّةِ المَوْضوعِ، لأَنَّ الأَمْرَ قَدْ يُسَبِّبُ حَوادِثَ وأَضْرَاراً، قَدْ تُؤَدِّي إِلى مَوْتِ أَحَدٍ مَا أَو إِصَابَتِهِ لَا قَدَّر اللهُ، ولَيسَ بِالضَّرورةِ سَائقُ الدَّرَّاجَةِ النَّارِيَّةِ نَفْسُهُ، قَدْ يَكُونُ رَاكِبَ أَوْ سَائِقَ سَيَّارَةٍ، أَوْ عَابرَ سَبيلٍ.

رَدَّدَ بَعْضُهُمْ:

ـ هَذَا كَلامٌ طَيِّبٌ مَسْؤولٌ.

هُنا قَالَ حَمَدٌ:

ـ أَيْنَ هِيَ الـمُشْكِلَةُ فِيمَا قُلْتَ يَا صَالِح؟ أَيُّ شَخْصٍ يُمْكِنُ أَنْ يَقولَ ذَلِكَ؟!

قُلْتُ لَهُمْ:

ـ الـمُشْكِلَةُ أَنَّ هَذَا الصَّدِيقَ ظَنَّ بيَ الظُّنونَ، واعْتَقَدَ أَنِّي أَقْصدُهُ، وَأُرِيدُ تَشْوِيْهَ سُمْعَتِهِ والتَّشْهِيرَ بِهِ، فَهوَ يُحِبُّ قِيادَةَ الدَّرَّاجَاتِ النَّارِيَّةِ، فَنَشَبَتْ بَينَنا مُشَادَّةٌ كَلامِيَّةٌ، فَقُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّباً:

ـ يَا أَخِي، هَدِّئْ أَعْصَابَكَ، لِمَاذَا كُلُّ هَذَا الغَضَبِ؟! اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لمْ أَقْصدْ مَا قُلْتُهُ، حَقِيقَةً لمْ أَكُنْ أَقْصدُ، ولا يُوجَدُ مُبَرِّرٌ واحِدٌ لِكُلِّ هَذِهِ الحِدَّةِ.

أَمَّا نَاصِرٌ فَقَالَ:

ـ نَعَم يَا صَالح، كَلامُكَ سَدِيدٌ وَسَلِيمٌ، صَحِيحٌ مَا

قُلْتَ تَمَاماً، فَمَنْ يَفْهَمُ خَطَأً يُحَلِّلُ الأَمْرَ عَلَى مِزَاجِهِ، فَيَأْتي التَّحْلِيلُ خَاطِئاً أَيْضاً، فَمِنَ البَيِّنِ الوَاضِحِ أَنَّك غَرَّدْتَ بِشَكْلٍ عَامٍّ. لا بَأْس، المُهِمُّ الآنَ؛ مَاذا كانَ مَوقِفُ صَاحِبِكَ بَعْدَ ذَلِكَ؟

أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّ صَدِيقي قَالَ لي وَهُو فِي حَالَةِ غَضَبٍ شَدِيدٍ وبِطَرِيقَةٍ عَصَبِيَّةٍ:

ـ أَنْتَ لَسْتَ بِصاحِبي وَلا أَنَا بِصَاحِبِكَ.

قَالَ حَمَدٌ:

ـ وَبِماذَا أَجَبْتَهُ؟

قُلْتُ لَهُ عَلَى الفَوْرِ:

ـ يَا صَدِيقِي العَزِيز، أَعْطِني رَأْسَكَ أُقَبِّلْهُ، أَرْجُوكَ، قَلْبِي رَقِيقٌ لَا يَحْتَمِلُ كُلَّ هَذَا الغَضَبِ، فُكَّني مِمَّا بَدَا لَكَ أَنَّهُ جُنُونٌ، أَعْصَابُكَ لا تُوَتِّرْها، وابْتَسِمْ، فَما قُلْتُهُ فِي تَغْرِيدَتي يَحْتَمِلُ الصَّوابَ كَمَا يَحْتَمِلُ الخَطَأَ، وَلَسْتَ أَنْتَ هُوَ المَقْصَودُ.

قَاطَعَنِي حَمَدٌ مُجَدَّداً وَقَالَ:

ـ كَلامٌ جَمِيلٌ لَيسَ عَلَيهِ غُبارٌ، فَلِمَاذا الغَضَبُ والزَّعَلُ إِذاً؟ المُهِمُّ، أَخْبِرْنا مَاذا كانَ مَوقِفُهُ.

أَجَبْتُ بِحُزْنٍ:

ـ كَرَّرْتُ لَهُ أَسَفِي، إِلَّا أَنَّهُ أَبَى وأَدَارَ ظَهْرَهُ وَمَشَى، فَقُلْتُ لَهُ؛ يَا أَخِي، يَكْفِي، أَتْعَبْتَني بِما فِيْهِ الكِفَايَةُ، سَامَحَكَ اللهُ، لَمْ أُخْطِئْ بِحَقِّكَ.

النَّاسُ أَجْناسٌ، كَمَا يَقُولُون.

عَلَّقَ عَبْدُ اللهِ عَلى ذَلِكَ وَهُوَ يَتَنَهَّدُ.

ثمَّ تَابَعَ يَقُولُ:

ـ أَعْتَقِدُ أَنَّ في قَلْبِ كُلِّ إِنْسانٍ أُناسِياً أَوْ أُنَاسِيَّةً أَوْ آنَاسَاً مُتَعَدِّدِينَ، وَكَمَا أَنَّ الكَلِمَاتِ الأَخِيراتِ جَمْعٌ لِمُفْرَدٍ وَاحِدٍ، كَذَلِكَ الإِنْسَانُ، قَدْ يَكونُ سَعِيداً وَحَزيناً، مُتَسَامِحاً في حُكْمِهِ وَقاسِياً، هَادِئاً وَعَصَبِيّاً، ظَالِماً وَعَادِلاً، شَرِيفاً وَمُخادِعاً في آنٍ مَعاً، وربَّما كَانَ

فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ أَشْكالاً مُتَعَدِّدَةً مُتَباينَةً، وَأفْكَارُ النَّاسِ مُفَرَّقَةٌ شَذَرَ مَذَرَ، لَكِنَّ الإِنْسانَ ـ عَلَى العُمومِ وفي كُلِّ مَكانٍ وَزمَانٍ ـ يَبْقَى إِنْسَاناً.

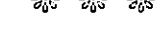

مَوَاقِفُ مُشَابِهَةٌ

تَسُودُ فَتْرَةُ صَمْتٍ يَقْطَعُهَا أَحْمَدُ بِقَوْلِهِ:

ـ كَثِيراً ما صَادَفَتْني مَواقِفُ مُشابِهَةٌ، والأَصْدِقاءُ أَيْضاً يُخْبِرونَني بِأَمْثالِها، وقَدْ يَصْدُفُ أَنْ نَسْمَعَ وَنَرَى مُنَاوَشَةً كَلَامِيَّةً أَو جِدَالاً، وَرُبَّما نِزَاعاً مَحْدُوداً غَيرَ مَحْمودٍ بَينَ الطَّلَبَةِ وَقْتَ الذِّرْوَةِ في الصَّبَاحِ أَوِ المَسَاءِ، عِنْدَما يَكُونُ الطَّلَبَةُ مُسْرِعِينَ ومُسْتَعْجِلِينَ، حِرْصاً عَلَى عَدَمِ التَّأَخُّرِ عَنْ فُصُولِهِمْ، وإِمَّا لِلْعَوْدَةِ إِلى مَنَازِلِهِم.

يَلْتَفِتُ جَمالٌ نَحْوَ النَّافِذَةِ، يَنْهَضُ مِنْ مَكانِهِ، يَشُقُّ النَّافِذَةَ قَلِيلاً فَيَنْسابُ الهَوَاءُ مُحَمَّلاً بِرائِحَةِ العُشْبِ المُبَلَّلِ بِالمَاءِ، ثمَّ يَسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلى النَّافِذَةِ، فَيَنْظُرُ إِلَيه الجَمِيعُ يَترَقَّبُونَ قَوْلَهُ التَّالي:

ـ بِالنِّسْبَةِ لِي؛ عِنْدَما أُصَادِفُ مِثْلَ هَذِهِ المَوَاقِفِ أَقُولُ: يَا أَخِي، المُسَامِحُ كَرِيمٌ.

يَضْحَكُ عَبْدُ اللهِ مُتَسَائِلاً:

ـ أَهَذَا مَا أَرَدْتَ أَنْ تُتْحِفَنَا بِهِ؟!

يَقُولُ حَمَدٌ قَاطِعاً ضَحِكاتِ الأَصْدِقاءِ:

ـ أَحْيَانَاً أُصَادِفُ مَوَاقِفَ سَيِّئَةً لِلْغَايَةِ، أُحَاوِلُ أَنْ أَتَدَخَّلَ لِلإِصْلاحِ، فَيَنْظُرُ إِلَيَّ البَعْضُ بِتَهَكُّمٍ، شَزَراً واسْتِهانَةً، وَيَعْنِي: مَا شَأْنُكَ أَنْتَ؟!

وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، اللهُ يَلْعَنُ الشَّيْطانَ، وَبَعْضُهُمُ الآخَرُ لَا يَلْتَفِتُ لِي وَيَسْتَمِرُّ بِمُناوَشَاتِهِ. وَعَادَةً مَا أَتَجَنَّبُ الغَوْصَ بِالتَّفَاصِيلِ، لأَنَّ الشَّيْطانَ كَمَا يَقولُونَ يَكْمُنُ فِي التَّفاصِيلِ، وأَنَا عَادَةً لا أَكْتَرِثُ بِكُلِّ مَا أَسْمَعُهُ وَأَرَاهُ، وأُعْرِضُ عَنِ الجَاهِلِينَ، وَرُبَّما شَتَمَني أَحَدُ المُتَخاصِمِينَ لِسَببٍ أَو لِغَيرِ سَبَبٍ، وَأَنَا المُصْلِحُ، فَلا أُبَالي.

لَكِنِ اليَومَ، المُشْكِلُ مَعَ صَدِيقٍ عَزِيزٍ، وَلا أَرَى سَبَباً وَجِيهاً لِلْخُصُومَةِ بَينَكُما.

يَتَكَلَّمُ سَلامٌ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أَنْ طَرَحْتُ المُشْكِلَةَ ويَقولُ:

ـ لَطالَما سَمِعْتُ أَبِي يُرَدِّدُ دَائِماً القَوْلَ المَأْثُورَ:

«إِذَا بَلَغَكَ عَنْ أَخِيكَ الشَّيءَ تُنْكِرُهُ؛ فَالْتَمِسْ لَهُ عُذْراً وَاحِداً إِلَى سَبْعِينَ عُذْراً، فَإِنْ أَصَبْتَهُ، وإِلَّا؛ قُلْ: لَعَلَّ لَهُ عُذْراً لا أَعْرِفُهُ».

فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

ـ اللهَ، اللهَ، مَا أَجْمَلَ الحِكَمَ!

وَيُضِيفُ سَلَامٌ:

ـ بِالتَّأْكِيدِ لا يَقْصدُ أَبِي بِذَلِكَ أَنْ أَسْتَسْلِمَ للواقِعِ، بَلْ يَقْصدُ التَّغاضِي عَنِ المَوقِفِ نَفْسِهِ، وَالبَحْثَ عَنِ الجَوانِبِ الإِيجابِيَّةِ التي تَكُونُ حَتْمِيَّةً بَينَ البَشَرِ، لأَنَّكَ لو ظَلَلْتَ تَبْحَثُ عَنِ المَظاهِرِ السَّلْبِيَّةِ بَينَ النَّاسِ فَلَنْ

تَنْتَهِي مِنْها أَبَداً، وقَدْ تَعَلَّمْتُ أَنْ أَلْتَمِسَ الأَعْذارَ دَائِماً.

قُلْتُ لَهُ:

ـ صَدَقْتَ وصَدَقَ أَبوكَ، أَطَالَ اللهُ في عُمُرِهِ وعُمرِكَ، لَكِنِّي أُرِيدُ حَلّاً لا مَوْعِظَةً.

قَالَ عَبْدُ اللهِ:

ـ طَالَمَا هُوَ مُصِرٌّ يَا صَالِحُ عَلَى مَوْقِفِهِ؛ فَمِنَ الصُّعُوبَةِ أَنْ تُغَيِّرَ مِثْلَ هَذَا المَوْقِفِ، وَقَدْ صَادَفْتُ تَجاربَ مُشَابِهَةً، وتَحْدِيداً في بَعْضِ الأَمَاكِنِ العَامَّةِ، حَدِّثْ عَنْها وَلا حَرَجَ. ومِنْها عِنْدَما أَذْهَبُ إِلى المُسْتَوْصَفِ القَرِيبِ مِنْ بَيْتِنا، أَحْياناً أَضْطَرُّ لِدُخولِ عِيادَةِ الطَّبِيبِ مَرَّتَينِ؛ مَرَّةً عِنْدَ الفَحْصِ الأَوَّلِ، والمَرَّةُ الثَّانِيَةُ إِذا طَلَبَ مِنِّي الذَّهابَ لقِيَاسِ حَرَارتِي، وَالعَوْدَةَ إِلَيهِ، وَهُنَا تُطِلُّ المَشْكِلَةُ بِرَأْسِهَا، لأَنَّ البَعْضَ قَدْ يَظُنُّ، وَخَاصَّةً الشَّابَّ المُتَحَمِّسَ بَعْدَ أَنِ أَسْتَأْذِنُهُ

لِلدُّخولِ إِلى الطَّبِيبِ، يَظُنُّ أَنَّني أُرِيدُ تَجاوُزَ الدَّورِ، مَعَ أَنِّي أَكونُ قَدْ خَرَجْتُ قَبْلَ بُرْهَةٍ مِنَ العِيادَةِ، وَذَهَبْتُ إِلى المُمَرِّضِ لِقِياسِ حَرارَتي كَمَا أَمَرَ الطَّبِيبُ، وفي النِّهايَةِ صُرْتُ أَتَجَنَّبُ مِثْلَ هَذَا المَوْقِفِ، وأَتَفَرَّسُ في وَجْهِ صَاحِبِ الدَّورِ، فَإِذا وَجَدْتُهُ سَمحاً لَبِقاً اسْتَأْذَنْتُهُ، وإِنْ لَمْ أَجِدْهُ كَذلِكَ انْتَظَرْتُ الذي بَعْدَهُ.

أَجَبْتُهُ:

ـ لا أَدْرِي، فَفي هَذَا الأَمْرِ صُعوبَةُ تَمْييزِ السَّمحِ عَنْ غَيرِهِ، لَكنِّي أَحْمدُ اللهَ أَنِّي لَمْ أُصَادِفْ مِثْلَ هَذَا الأَمْرِ، لأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَتَسَاهَلُونَ في ذَلِكَ ويَتَسَامَحُونَ، لَكِنَّكَ لَمْ تُقَدِّمْ ليَ حَلاً لِمُشْكِلَتي، إِلّا إِذا كُنْتَ تَقْصدُ أَنَّ صَدِيقِي الَّذي أَتَحَدَّثُ عَنْهُ لَيْسَ سَمحاً وَلَيْسَ لَبِقاً، وَيَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَتَجَنَّبَه.

يَضْحَكُ عَبْدُ اللهِ وَيَقولُ:

ـ إِنَّ اللَّبيبَ مِنَ الإِشارَةِ يَفْهَمُ.

كَانَ بَعْضُ الطُّلابِ يَسْتَمِعُونَ وَلا يتَحَدَّثُونَ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللهِ مُحَفِّزاً:

ـ لِمَاذا أَنْتُمْ صَامِتونَ؟! هَلْ تُفَضِّلونَ الاسْتِماعَ فَقَط؟! أَمْ أَنَّ المَوضُوعَ لا يُثِيرُ اهْتِمَامَكُمْ؟! أَنْتُمْ تُنْصِتونَ بِانْتِباهٍ شَدِيدٍ ولا تَتَكَلَّمُونَ، فَهَلْ لَدَيْكُمْ قِصَصٌ مُمَاثِلَةٌ نَسْتَفِيدُ مِنْها؟ هَيَّا أَخْبِرونا بِها أَيُّها الأَصْدِقاءُ. جُودُوا عَلَينَا بِتَجارِبِكُمْ.

يَضْحَكُ مِشعَلٌ، ثمَّ يَلْتَفِتُ نَحْوَ صَدِيقِنا سَلامٍ الذي تَكَلَّمَ قَبْلَ قَلِيلٍ، ويَقُولُ:

ـ عَلَى ذِكْرِ التَّفَرُّسِ في قِصَّةِ سَلام؛ سَأُخْبِرُكُمْ قِصَّةَ مَوْقِفٍ لَهُ عَلاقَةٌ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ، وَغالِباً مَا يُصَادِفُ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ، وفِي كُلِّ مَكانٍ وفِي أَيِّ وَقْتٍ، مِثْلُ هَذَا المَوْقِفِ، وهِيَ تَحكِي تَجْرِبَةً مُضْحِكَةً حَدَثَتْ مَعِي قَبْلَ أَيَّامٍ، وَتُشْبِهُ تَجارِبَ عَدِيدَةً مُمَاثِلَةً لِلأَسَفِ، حَدَثَتْ

مَعِي فِيما كُنْتُ أَمْشِي صَباحاً أَتَنَزَّهُ عَلَى البَحْرِ قَرِيباً مِنَ الشَّاطِئِ.

وأَضَافَ مِشْعَلٌ:

ـ كُنْتُ أَدُورُ في دَائِرَةٍ صَغِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، وفي كُلِّ دَوْرَةٍ تَقَعُ عَينايَ عَلَى صَبِيٍّ في مِثْلِ عُمرِي تَقْرِيباً، يَجْلِسُ لِوَحْدِهِ تَحْتَ شَجَرَةٍ كَبيرَةٍ، فَجْأَةً وَجَدْتُهُ يَقْطَعُ الطَّريقَ أَمَامي مُتَّهِماً إِيَّايَ بِأَنِّي أَتَفَرَّسُ فِيهِ وأَتَحَدَّاهُ، عِلْماً بِأَنِّي كُنْتُ أَمْشِي بِشَكْلٍ طَبِيعيٍّ وعاديٍّ جِدّاً مِثْلَ كُلِّ النَّاسِ، لمْ أَنْظُرْ إِلَيهِ بِتحَدٍّ، ولَيسَ الأَمْرُ مِنْ عَادَتي أَسَاسَاً؛ فَأَكَّدْتُ لَهُ أَنِّي لمْ أَفْعَلْ، فَأَصَرَّ عَلَى مَوْقِفِهِ. وَكَانَ كَمَا يَبْدُو مُشَاكِسَاً وَمُشَاغِباً ويُرِيدُ أَنْ يَفْتَعِلَ مُشْكِلَةً مَعِي، وبِما أَنِّي لَسْتُ رِيَاضِيّاً مِثْل أَحْمَدَ ولا قَوِيَّ البُنْيَةِ مِثْل حَمَدٍ، وَلا أَمْلِكُ حِزامَاً أَسْوَدَ ولا أَبْيَضَ؛ فَقَدْ حَاوَلْتُ التَّمَلُّصَ والهَرَبَ، لَكِنَّهُ قامَ

بِمُلاحَقَتي، وسَارَ خَلْفِي، فَوَقَفْتُ وقُلْتُ لهُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ:

ـ لا تُعَقِّدِ الأُمورَ عَلَيَّ وَعَلَيكَ. لَمْ أَكُنْ أَنْظُرُ إِلَيكَ بِتَحَدٍّ. عَيني جَاءَتْ في عَينِكَ بِالصُّدْفَةِ، كُنْتُ أَنْظُرُ سَاهِياً بِغَيرِ هَدَفٍ، لمَاذا تُرِيدُ أَنْ نَتقاتَلَ عَلَى لَا شيء؟ فَتَجَمَّعَ النَّاسُ مِنْ حَولِنا وَصَاروا يَنْظُرُونَ إِلَينا وَيَتَرَقَّبونَ مَا سَيَحْدُثُ، عِنْدَهَا تَرَكَني الشَّابُّ، وَمَضَى ولم يَنْبسْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

فَرَاحَ جَمِيعُ الأَصْدِقاءِ يَضْحَكُونَ مِنْ جَدِيدٍ.

وعِنْدَمَا هَدَأَتِ الضَّحِكاتُ قَالَ أَحْمَدُ:

ـ ومَاذَا يَعْني الحِزامُ الأَسْودُ، بَلْ مَاذا تَعْني القُوَّةُ؟! القَوِيُّ الحَقِيقيُّ هُوَ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ سَاعَةَ الغَضَبِ، أَنَا لَمْ أَتَدَرَّبْ عَلَى الكَاراتِيه لِكَي أَضْرِبَ الآخَرِينَ، بَلْ لأَنَّ الرِّياضَةَ صِحَّةٌ وقُوَّةٌ، وَلَيسَتْ لِلتَّسَلُّطِ والاعْتِداءِ، بَلْ لِلدِّفاعِ عَنِ النَّفْسِ عِنْدَ الخَطَرِ.

وَتَابَعَ أَحْمَدُ حَدِيثَهُ قَائِلاً:

ـ وَأَنَا مِثْلُكُمْ صَادَفْتُ أَيْضاً مَواقِفَ، وسَمِعْتُ كَلاماً جارِحاً لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَذْكُرَه لَكُمْ، لَكِنِّي رَغْمَ ذَلِكَ لَمْ أَلْجَأْ إِلى القُوَّةِ، وأُفَضِّلُ دائماً المُسَامَحَةَ.

وفي مَرَّةٍ شَتَمني شَابٌّ يَقُودُ سَيّارَةً رِياضِيَّةً حَديثَةً جِدّاً لِخَطَأٍ بَسِيطٍ قُمْتُ بِهِ أَثْناءَ قِيادَتي لِلدَّرَّاجَةِ الهَوَائِيَّةِ، وبِما أَنِّي حاصِلٌ عَلَى الحِزامِ الأَسْودِ في الكاراتيه؛ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ أُوْسِعَهُ ضَرْباً، لَكِنِّي اعْتَذَرْتُ مِنْهُ، فَأَخْجَلَهُ اعْتِذارِي وأَصْبَحْنا أَصْدِقاءَ مُنْذُ تِلْكَ الحَادِثَةِ.

فَقَالَ عَلَيٌّ:

ـ عَلَى ذِكْرِ قِصَّةِ مِشْعَلٍ والصَّبيِّ المُشَاكِسِ الذي صَادَفَهُ قُرْبَ البَحْرِ؛ هُنالِكَ قِصَّةٌ تَتَحَدَّثُ عَنْ صَبِيٍّ مِثْلِهِ اسْمُهُ مَاضي، وهُوَ صَبِيٌّ لا يُحِبُّ أَنْ يُمْلِيَ عَلَيهِ أَحَدٌ ما الَّذي يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَهُ. إِذَا قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ تَعالَ لِتَدْرُسَ

ذَهَبَ وجَلَسَ أَمَامَ التِّلْفِزيونِ، وإِذَا قَالَ لَهُ أَبُوهُ اخْفِضْ صَوْتَ التِّلِفزْيونِ رَفَعَ الصَّوْتَ عالياً. وإِذَا قَالَتْ لَهُ المُدَرِّسَةُ أُرِيدُ وَظِيفَتَكَ غَداً، فَيَأْتِي بِها بَعْدَ غَدٍ، وإِذَا طَلَبَ مِنْهُ أَيُّ إِنْسانٍ طَلَباً ما يُعاكِسُهُ ويُشَاكِسُهُ، فَهُوَ لا يُحِبُّ أَنْ يَقُولَ لَهُ أَحَدٌ افْعَلْ أَوَ لا تَفْعَلْ.

وَتَابَعَ عَلِيٌّ حَدِيثَهُ قَائِلاً:

ـ كَانَ مَاضِي يَعيشُ صَراعاً دائماً مَعَ أَبِيهِ وأُمِّهِ ومُدَرِّسِيهِ، لَكنَّهُ يبْقَى مُصِرّاً مهما كَانَتِ العُقُوباتُ أَوِ المُغْرِيَاتُ، وَلِذَلِكَ كانُوا يَتَجَنَّبُونَهُ والجَميعُ مِنْ حَوْلِهِ يتَنَبَّهُ لِهَذا الأَمْرِ عِنْدَ الحَدِيثِ مَعَهُ، وظَلَّ مَاضِي عَلَى هَذِهِ الحَالِ، لا يُحِبُّ أَنْ يَأْمُرَهُ أَحَدٌ بِشَيءٍ.

وأَضَافَ:

ـ وفِي يَوْمٍ فِيما كَانَ عَائِداً مِنَ المَدْرَسَةِ رَأَى لَوْحَةً تَقُولُ: رَجاءً، لا تَمْشِ عَلَى هَذَا الرَّصِيفِ، فَنَظَرَ ماضِي إِلى اللَّوْحَةِ بِغَضَبٍ، فَهُوَ لا يُحِبُّ الأَوَامِرَ،

وَسَارَ وَسَطَ الرَّصِيفِ مَتَحَدِّيَاً. فَصَاحَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَعْلَى البِنَاءِ المُجَاوِرِ:

ـ ابْتَعِدْ يا صَبِيّ، ابْتَعِدْ عَنِ الرَّصِيفِ.

لَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَى السَّيرِ رَغْمَ التَّحْذيرِ. وإِذْ بِكَمِّيَّةٍ مِنَ الأَلْوَانِ تَسْقُطُ عَلَيهِ، ويُصْبِحُ شَكْلُهُ مُضْحِكاً، فَقَدْ كَانَ هُنَالِكَ رِجَالٌ يَطْلُونَ البِنَاءَ مِنَ الخَارِجِ بِأَلْوانٍ مُتَعَدِّدَةٍ. وَشَاهَدَهُ المَارُّونَ بِهَذَا المَنْظَرِ، ورَاحُوا يَضْحَكُونَ ويَضْحَكُونَ. ثمَّ عَادَ ماضي إِلى بَيْتِهِ عَلَى هَذِهِ الحالِ، وأَدْرَكَ عاقِبَةَ مَنْ لا يَسْتَمِعُ لِلآخَرينَ، وقَالَ في نَفْسِهِ:

ـ ما أَدْرَاني! رُبَّما في المَرَّةِ القَادِمَةِ تَقَعُ عَلَيَّ حِجارَةٌ ثَقِيلَةٌ.

ولَمْ يَعُدْ ماضي يَفْعَلُ عَكْسَ ما يُقالُ لَهُ مرَّةً ثانِيَةً.

وعَادَ الجَمِيعُ لِلضَّحِكِ مِنْ جَدِيدٍ، ثمَّ تَحَدَّثَ عَبَّاس قَائِلاً:

ـ أَمَّا أَنَا فَقَدْ وَاجَهَتْني مُشْكِلاتٌ عَصِيبَةٌ مُمَاثِلَةٌ،

مَعَ أَنِّي لَسْتُ فَتًى مُشَاكِسَاً وَلا مُعاكِساً . . .
هههههههه .

ويُتَابِعُ بَعْدَ ضِحْكَةٍ طَوِيلَةٍ :

ـ فِي الأُسْبوعِ المَاضِي تَحْديداً ، وَفِيما كُنْتُ ذاهِباً مَعَ أَبِي إِلى السُّوقِ ، وبَعْدَ أَنْ أَوْقَفَ سَيَّارَتَهُ مَكانَ سَيَّارَةٍ خَرَجَتْ لِلتَّوِّ عِنْدَ وُصُولِنا ؛ فُوجِئْنا بِشابٍّ يَصِيحُ بِصَوتٍ مُرْتَفِعٍ ، وَكَمَا يَبْدُو فَقَدْ كَانَ يَنْتَظِرُ خُروجَ السَّيارَةِ التي وَقَفْنا مَكانَها ، غَيرَ أَنَّ أَبي سَبَقَهُ ورَكَنَ سَيَّارَتَهُ في المَوقِفِ نَفْسِهِ وَبِشَكْلٍ مُباغِتٍ لَهُ ، فَنَظَرَ إِلَيهِ أَبِي مُبْتَسِماً ، والشَّابُّ يُحَدِّثُهُ بِكُلِّ غَضَبٍ ، وكَأَنَّهُ خَطَفَ مِنْهُ جَوْهَرَةً ثَمِينَةً واسْتَوْلى عَلَيها ، ثمَّ قَالَ :

آسِفٌ لَمْ أَنْتَبِهْ. تَأْمُر ، لا تُوْجَدُ أَيُّ مُشْكِلَةٍ ، تَفَضَّلْ ، المُهِمُّ أَنْ تَكونَ رَاضِياً. المَكانُ فَسِيحٌ ، وسَأَبْحَثُ عَنْ مَوْقِفٍ آخَرَ ، لَيْسَ بِالضَّرورَةِ أَنْ أَقِفَ بِهذا المَكانِ ، فَالأَمَاكِنُ وَفِيرَةٌ. اللهُ يُوَسِّعُ عَلَينا جَمِيعاً .

ـ أتُصَدِّقُون مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ؟! لَقَدِ امْتَصَّ أَبي بِكَلامِهِ هَذَا كُلَّ غَضَبِ الشَّابِّ، فَرَفَضَ الشَّابُّ رَفْضَاً قاطِعاً أَنْ يُغَيِّرَ أَبِي مَكانَ سَيَّارَتِهِ.

ويُتَابِعُ عَبّاس حَدِيثَهُ:

ـ وقَبْلَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ حَدَثَتْ مَعَنا حَادِثَةٌ مُشَابِهَةٌ، فَقَدْ كُنْتُ مَعَ أَبي أَيْضاً في إِحْدى الوزَارَاتِ لإِنْجازِ مُعامَلَةٍ، فَبَادَرَنا شَخْصٌ كَبيرٌ بِالسِّنِّ يَتَّهِمُنا بِأَنَّنا أَخَذْنا دَوْرَهُ، وَلَمْ نَلْتَزِمْ بِالطَّابورِ. فَاعْتَذَرَ مِنْهُ أَبِي قَائِلاً:

ـ عُذْراً يا سَيِّدي، لَمْ أَنْتَبِهْ إِلى أَنَّكَ تَقِفُ قَبْلِي بِالدَّوْرِ. يَا عَمِّي، الأَمْرُ بَسِيطٌ ولَيسَ سَبَباً ومَدْعاةً لِكُلِّ هَذَا الضَّجِيجِ والإِحْرَاجِ، حَتَّى لَوْ كانَ دَورِي فَمَكانُكَ في المُقَدِّمَةِ، سَامِحْني.

لَكِنَّ الرَّجُلَ ظَلَّ يُبَرْبِرُ ويُكْثِرُ الكَلامَ في جَلَبَةٍ وصِياحٍ وغَضَبٍ ونُفورٍ، فَقَالَ لَهُ أَبي:

ـ أَرْجُوكَ سَامِحْني، لا يُوجَدُ سَبَبٌ يَجْعَلُكَ تَغْضَبُ

بِهَذا الشَّكْلِ. تَفَضَّلْ. المَكانُ كُلُّهُ لَكَ، وَأَنَا سَأَقِفُ هُنااااااااا. . .ك في آخِرِ الطَّابورِ، ولَوْ شِئْتَ سَأَخْرُجُ مِنَ المَبْنَى كُلِّهِ وأَعودُ في يَومٍ لاحِقٍ.

وما أَنْ أَتمَّ عَبّاس قِصَّتَهُ، وفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ تَماماً؛ دَخَلَ المُدَرِّسُ مُعْتَذِراً عَنِ التَّأْخِيرِ.

وقَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ الأُسْتاذُ فاضِلٌ الدَّرْسَ الجَدِيدَ بَادَرَهُ خَالِدٌ الذي كانَ طِوالَ الوَقْتِ يُنْصِتُ صَامِتاً بِالقَوْلِ:

ـ عُذْراً يَا أُسْتاذُ. لَقَدْ دَارَ قَبْلَ مَجِيئِكَ حِوارٌ مُهِمٌّ جِدّاً، وَلَمْ أُرِدِ الكَلامَ حَتَّى تَتَفَضَّلَ بِالحُضورِ لِتَسْمَعَ قَوْلي، فَهَلْ تَسمَحُ لِي يا سَيِّدي بِكَلِمَةٍ؟

فَقَالَ الأُسْتاذُ فاضِلٌ:

ـ تَفَضَّلْ يَا بُنَيّ، لَكِنْ بِاخْتِصَارٍ.

شَكَر خَالِدٌ الأُسْتاذَ فاضِلاً عَلَى سَمَاحَةِ أَخْلاقِهِ، ثُمَّ قَالَ:

ـ يَا أُسْتَاذِي الكَرِيم، اسْمَحْ لي بِاعْتِرافٍ صَغِيرٍ،

وإقْرارٍ واعْتِذارٍ. لَقَدْ أَخْطَأْتُ بِحَقِّ صَالِحٍ، وأَقِرُّ بِذَنْبِي وأَعْتَرِفُ بِأَنِّي أَخْطَأْتُ، لِذَا فَإِنِّي أَعْتَذِرُ مِنْهُ أَمَامَكَ وأَمامَ الجَمِيعِ وعَلَى المَلأ، والاعْتِذارُ عَنِ الخَطَأِ فَضِيلَةٌ، أَلَيسَ كَذَلِكَ يا أُسْتاذ؟ والمُسَامِحُ كَرِيمٌ.

ومَا أَنِ انْتَهَى خَالِدٌ مِنْ كَلِمَتِهِ حَتَّى ضَجَّ الفَصْلُ بِالتَّصْفِيقِ مِنَ المُفاجَأَةِ، لأَنَّ أَحَداً مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ قَبْلَ تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَقَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا هَذا الكَلامَ أَنَّ هُناكَ خُصُومَةً بَيْني وبَينَ خَالِدٍ، فَقَفَزْتُ نَحْوَهُ وَضَمَمْتُهُ إِلَى صَدْرِي، والفَرْحَةُ تَغْمرُ الجَمِيعَ.

ضَحِكَ الأُسْتاذُ فاضِلٌ، وهَو يَضْرِبُ الطَّاوِلَةَ بِيَدِهِ قَائِلاً:

ـ هُدُوء، هُدُوء، يَبْدو أَنَّهُ قَدْ فاتَني حِوارٌ خَطِيرٌ دَفَعَ خَالِداً لِيَعْتَذِرَ ويَعْتَرِفَ بِهَذا الاعْتِرافِ أَمَامي وأَمَامَ الجَمِيعِ، لِذَا سَنُؤَجِّلُ الدَّرْسَ إِلَى وَقْتٍ لاحِقٍ. الدَّرْسُ بِإِمْكانِهِ أَنْ يَنْتَظِرَ بَعْضَ الوَقْتِ، أَمَّا أَنَا فَلَدَيَّ فُضُولٌ

وَاسِعٌ عَرِيضٌ، وَشَغَفٌ كَبِيرٌ، لأَعْرِفَ مَاذا جَرَى فِي غِيابي. أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ تَفَاصِيلَ المُشْكِلَةِ، وكُلَّ مُجْرَياتِ الحِوارِ الذي تمَّ بَيْنَكُمْ مِنَ الأَلِفِ إِلَى الياءِ، حَتَّى أَفْهَمَ المُشْكِلَةَ وَكَيفَ نَاقَشْتُموها، هَيَّا يا أَبْنائي، أَغْلِقوا كُتُبَكُمْ، وَفَهِّمُوني ـ رَعَاكُمُ اللهُ ـ مَا القِصَّةُ مِنَ البِدَايَةِ حَتَّى النِّهايَةِ، فَكُلِّي آذانٌ صَاغِيَةٌ.

وحَكَينا لِلأُسْتاذِ فاضِلٍ قِصَّتَنا. كَانَ يُنْصِتُ بِاهْتِمامٍ بالِغٍ.

أَعْرَبَ عَنْ سَعادَتِه بِعَلاقَةِ الصَّدَاقَةِ والمَحَبَّةِ التي جَمَعَتْ بَيْنَنا وسادَتْ حِوارَنا.

أَمَّا الأَمْرُ الذي جَعَلَهُ أَكْثَرَ سَعَادَةً وَفَخْراً بِنا أَنَّ الخِلافَ لَمْ يَتَحَوَّلْ إِلى كَرَاهِيَّةٍ وعَدَاوةٍ، بَلْ عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ سَبَّبَ لنَا قَلَقاً مِنَ الجَانِبَينِ.

أَثْنَى عَلَى النِّقاشِ مُشَدِّداً عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ بَينَ الأَصْدِقاءِ، لأَنَّ النِّقاشَ الهَادِفَ الهَادِئَ البَعِيدَ عَنِ

العِنادِ والقَسْوَةِ والضَّغِينَةِ وَالحِدَّةِ لا بُدَّ وأَنْ يَصِلَ في النِّهايَةِ إِلَى حَلٍّ لأَيِّ مُشْكِلَةٍ تُواجِهُنا في الحَياةِ.

هُنا شَعَرْتُ أَنَّ المُشْكِلَةَ التي كَانَتْ تُؤَرِّقُني قَدِ انْتَهَتْ، فَهِيَ لَوِ اسْتَمَرَّتْ سَتُعَكِّرُ صَفْوَ رِحْلَتِي إِلى مَالِيزيا.

لَمْ أَكُنْ لأَشْعُرَ بِالرَّاحَةِ والهَناءِ فِي السَّفَر بَعِيداً؛ وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ أَحَداً مِنَ النَّاسِ غَاضِبٌ مِنِّي، وَخَاصَّة صَدِيقي خَالد.

❋ ❋ ❋

عَكْسُ السَّيْرِ

خَرَجْتُ مِنَ المَدْرَسَةِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ رَاضِياً وَسَعِيداً جِدّاً بِعَوْدَةِ المِياهِ إِلى مَجارِيها فِي عَلاقَتي مَعَ صَدِيقِي خَالِدٍ.

السَّيارَاتُ تَمُرُّ في الطَّرِيْقِ الضَّيِّقِ ذِي الاتِّجاهِ الواحِدِ عَكْسَ السَّيْرِ، وأَنَا أَجْلِسُ مَعَ والدي في سَيارَتِهِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ سَاعَةٍ، نَنْتَظِرُ تَوَقُّفَ سَيلِ المَرْكَباتِ المُتَدَفِّقِ خِلافاً لِقَانُونِ المُرورِ.

الشُّرْطَةُ في هَذَا الوَقْتِ اللَّاهِبِ مِنَ النَّهَارِ، عِنْدَ انْتِصافِ الظَّهِيرَةِ، تُخَفِّفُ مِنْ دَوْرِيَّاتِها عَلَى الطُّرُقاتِ الجَانِبِيَّةِ، وَيَكُونُ تَرْكِيزُها عَلَى الشَّوارِعِ الكُبْرَى الرَّئِيسِيَّةِ. عِلْماً أَنَّهُ مِنَ النَّادِرِ أَسَاساً أَنْ تَمُرَّ دَوْرِيَّةٌ في

هَذَا الشَّارِعِ الفَرْعِيِّ فِي الأَوْقاتِ العَادِيَّةِ، فَلَيْسَ غَرِيباً أَنْ يُخَالِفَ بَعْضُهُمُ القَانُونَ في هَذا الوَقْتِ مِنَ النَّهارِ؛ تَمَلُّصاً مِنْ زَحْمَةِ الطَّرِيقِ المُوازِي، تَزَامُناً مَعَ خُرُوجِ المُوَظَّفِينَ مِنْ عَمَلِهِمْ وعَوْدَةِ الطُّلّابِ مِنْ مَدَارِسِهِمْ، فَتَمْتَلِئُ الشَّوارِعُ وَتَكْتَظُّ بِالسَّياراتِ، وَخَاصَّةً هَذَا الشَّارِعَ الفَرْعِيَّ الذي يَسْلُكُهُ السَّائِقونَ بِطَرِيقٍ عَكْسِيٍّ يَخْتَصِرُ عَلَيهِمْ مَسافَةً طَويلَةً فِيما لَو سَاروا دُونَ مُخَالَفَةِ إِشارَةِ «مَمْنوعٌ الدُّخُولُ».

مِنْ جِهَتي؛ الحَرَارَةُ لا تُزْعِجُني رَغْمَ أَنَّ لَهِيبَ شَمْسِ الظَّهِيرَةِ يَحْرِقُ جَبْهَتي، لاسيَّما أَنَّ مُكَيِّفَ سَيَّارَةِ أَبي ضَعِيفٌ، ولا يبْلِي بَلاءً حَسَناً في سَاعَاتِ الظَّهِيرَةِ الحارَّةِ، لَكِنِّي اعْتَدْتُ عَلَى ارْتِفاعِ حَرَارَةِ الجَوِّ. مَا يُزْعِجُني أَنْ أَتَأَخَّرَ بِالعَوْدَةِ إِلى البَيْتِ، فَلا أَتَمَكَّنُ مِنْ إِنْجازِ وَاجِباتِي وَدُرُوسِي مُبَكِّراً.

وأَذْكُرُ أَنَّهُ فِي يَومٍ قَرَّرَ أَبِي أَنْ يَسِيرَ عَكْسَ السَّيْرِ

كاسِراً نِظَامَهُ التَّقْلِيديَّ المُلْتَزِمَ بِقَوانِينِ المُرورِ، فَكَانَ حَظُّهُ سَيِّئاً لِلغايَةِ، لأَنَّ شُرطِي المُرورِ الذي لَمْ نَرَهُ سَابِقاً ولا مَرَّةً واحِدَةً في هَذَا المَكَانِ شَرَّفَنَا في ذَلِكَ اليَوم، وكَأَنَّهُ يَقِفُ بِالمِرْصَادِ لأَبي رَغْمَ أَنَّ المَسَافَةَ لَمْ تَتَجاوزْ أَمْتاراً قَلِيلَةً.

وَيَوْمِيّاً أَتَأَمَّلُ وُجُوهَ المَارَّةِ وَالسَّائِقِينَ مِنْ نِسَاءٍ وَرِجالٍ، وَهُمْ يَمْشُونَ عَلَى الرَّصِيفِ أَوْ يَقُودُونَ سَيّاراتِهِمْ، يَعْبُرونَ أَمَامِي دُونَ اكْتِراثٍ. وأَحْياناً يَنْظُرُونَ نَحْوِي نَظْرَةً خَاطِفَةً، ثُمَّ يُدِيرُونَ وُجُوهَهُمْ، يَلْوُونَ أَعْنَاقَهُمْ، ويُقَلِّبُونَ شِفاهَهُمْ، وَيَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ، وكَأَنِّي المَسْؤُولُ عَنِ الخَطَأِ المُسَبِّبِ لِكُلِّ زِحامِ الطَّرِيقِ.

وعَلَى العُمُومِ، فَإِنَّ المَسْأَلَةَ بَاتَتْ غَيرَ مُهِمَّةٍ جِدّاً بِالنِّسْبَةِ لِي، فَقَدِ اعْتَدْتُ عَلَى أَنَّ النَّاسَ لا يَرْضوْنَ بِسُهُولَةٍ.

❋ ❋ ❋

عَوْدَةٌ إِلى الرِّحْلَة

وَعُدْتُ أُفَكِّرُ بِالرِّحْلَةِ دُونَ أَيِّ مُزْعِجاتٍ، فَهَذِهِ رِحْلَتي الأُولَى إِلَى مَالِيزيا بَعْدَ سَفْرَةٍ أَخِيرَةٍ قُمْنَا بِهَا إِلى دَوْلَةِ الإِمَارَاتِ العَرَبِيَّةِ قَبْلَ أَسابِيعَ قَلِيلَةٍ، حَيْثُ أَقَمْنَا في دُبَي، وزُرْنا الشَّارِقَةَ ثمَّ أَبوظَبي، ورُبَّما كانَتْ هَذِهِ هِيَ المَرَّةُ الخَامِسَةُ أوِ السَّادِسَةُ التي أَرْكَبُ فِيها الطَّائرَةَ، فَقَدْ سَافَرْتُ مِنْ قَبْلُ جَوّاً إِلى الأَرَاضِي المُقَدَّسَةِ لأَدَاءِ مَنَاسِكِ العُمرَةِ.

كُنْتُ صَغِيراً لا أَذْكُرُ التَّفاصِيلَ كُلَّها بِوضوحٍ تَامٍّ، وَقَدْ أَخْبَرَتْنِي أُمِّي عَنْ بَعْضِ سَفْراتِنا بِالطَّائِرَةِ وأَنَا طِفْلٌ صَغِيرٌ، كَمَا أَنَّنَا سَافَرْنا بِالسَّيَّارَةِ، ورَكِبْنَا السُّفُنَ أَيْضَاً.

أَعْرِفُ ذَلِكَ مِنَ الذِّكْرَيَاتِ التي أَحْمِلُها فِي رَأْسِي

لِرَحلاتٍ قُمْنَا بِهَا بِالسَّنَواتِ الأَخِيرَةِ، أَو مِمَّا تُخْبِرُني بِهِ أُمِّي، وَكَذَلِكَ مِنَ الصُّوَرِ الكَثِيرَةِ التي تَحْتَفِظُ بِها أُمِّي في جِهازِ الحَاسُوبِ الخاصِّ بِها، وهُناكَ أَيْضاً صُوَرٌ كَثيرَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى جِدارِ غُرْفَةِ أَبِي وأُمِّي، كَمَا أَنَّ هُناكَ بَعْضَ الصُّوَرِ فِي غُرْفَتي، وَكَذَلِكَ فِي غُرْفَةِ أَخِي الصَّغِيرِ.

أَمَّا رِحْلَتي إِلى مَالِيزيا فَهِيَ أَوَّلُ رِحْلَةٍ بَعِيدَةٍ أَقُومُ بِهَا.

عِلْماً أَنَّ أَبِي وأُمِّي ذَهَبا إِلِيها بَعْدَ زَوَاجِهِمَا، وَقَضَيَا فِيها شَهْراً، يَقُولانِ عَنْهُ أَنَّه كَانَ مِنْ أَجْمَل أَيَّامِ العُمرِ.

وَكانَ أَبِي أَشَدَّ حَمَاسَةً مِنَّا جَمِيعاً، وَكانَ يُرِيدُ أَنْ نَذْهَبَ لِلإِقامَةِ في الفُنْدُقِ نَفْسِهِ الذي شَهِدَ الأَيَّامَ الأُوْلَى لِزَواجِهِمَا، لَكِنَّ أُمِّي رَفَضَتْ ذَلِكَ، وَقَالَتْ أَنَّها

تُرِيدُ أَنْ تَسْكُنَ فِي شَاليه مُسْتَقِلٍّ، قَرِيبٍ مِنَ البَحْرِ، وأَمَامَهُ حَدِيقَةٌ، بَعِيداً عَنِ الضَّجِيجِ وَالزِّحَامِ.

لَمْ يَسْأَلْني أَحَدٌ عَنْ رَأْيِي بِالمَوْضُوعِ، رَغْمَ أَنَّهُ مِنَ المُفْتَرَضِ أَنَّ هَذِهِ الرِّحْلَةَ هِيَ رِحْلَتي أَنا، لَكِنَّ أَبِي كَمَا يَبْدُو كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَعِيدَ ذِكْرَياتِ أَيَّامِ زَوَاجِهِ الأُوْلَى، فَاخْتَارَ مُنْتَجَعاً فِي المَنْطِقَةِ نَفْسِها التي يَقَعُ فِيها الفُنْدُقُ.

واسْتِباقاً لأَيِّ مُحَاوَلَةٍ مِنِّي لِلاعْتِراضِ، فَقَدْ أَغْرَانِي أَبِي بِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ جَمِيلَةٍ خِلالَ عُطْلَةِ نِهايَةِ الأُسْبوعِ قَبْلَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ مِنَ مَوعِدِ عُطْلَةِ الرَّبِيعِ وَتَارِيخِ سَفَرِنا إِلى مَالِيزيا، هَدِيَّة لِي بِمُنَاسَبَةِ يَومِ مَوْلِدِي.

كَمَا وَعَدَني بِأَنَّهُ سَيَشْتَرِي لِي حَاسُوباً جَدِيداً وَنَحْنُ عَائِدِينَ مِنَ السُّوقِ الحُرَّةِ في مَطارِ دُبي، حَيْثُ تَحُطُّ الطَّائِرَةُ لِسَاعَتَينِ كَامِلَتَينِ قَبْلَ طَيَرَانِها مِنْ جَدِيدٍ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِنا إِلى الكُوَيْتِ.

وبِما أَنَّهَا فُرْصَةٌ لا تَتَكَرَّرُ دَائِماً؛ فَقَدْ أَظْهَرْتُ لَهُ عَدَمَ رِضَايَ التَّامِّ، مَعَ أَنِّي كُنْتُ طَائِراً مِنَ الفَرَحِ ـ كَمَا يَقُولُونَ ـ والدُّنْيا لا تَسَعُني مِنَ السَّعادَةِ، وأَخْبَرْتُهُ بِأَنِّي مُوَافِقٌ بِشَرْطٍ واحِدٍ؛ أَنْ يُوَافِقَ عَلَى إِصْلاحِ بَابِ بَيتِنا القَديمِ الذي كانَ أَبي يَرْفُضُ تَغْييرَهُ أَوْ إِصْلاحَهُ، لأَسْتَرِيحَ مِنْ صَوتِهِ المُزْعِجِ الذي يُسَبِّبُ لِيَ الصُّدَاعَ.

أَبِي لَمْ يُعْطِني جَواباً وَاضِحاً. قَالَ أَنَّهُ سَيُفَكِّرُ بِالمَوْضوعِ عِنْدَما نَعُودُ مِنْ مَالِيزيا، لَكِنِّي قُلْتُ لَهُ:

ـ البَابُ أَوَّلاً! فَهَزَّ رَأْسَهُ بِالمُوافَقَةِ عَلَى مَضَضٍ كَمَا بَدا وَاضِحاً.

والبَابُ هَذَا بَابٌ مُزْعِجٌ، كُلُّهُ إِزْعَاجٌ؛ أَكْثَرُ مِنْ مِطْرَقَةِ الْحَدَّادِ ثِقْلاً عَلَى الْقَلْبِ، كُنْتُ أَوَدُّ لَوْ أَكْسِرُهُ، أُحَطِّمُهُ، أُفَتِّتُهُ مِثْلَ حَبَّاتِ الْعَدَسِ.

قُلْتُ لِأَبِي مَرَّةً تِلْوَ الْمَرَّةِ:

ـ أَرْجُوكَ يَا أَبِي، بَدِّلْ هَذَا الْبَابَ الْقَدِيمَ.

وجَوَابُهُ الْمُتَكَرِّرُ:

ـ لَمَّا تَكْبَر تَعْرِفْ قِيمَةَ هَذا الْبَابِ.

أَقُولُ:

ـ أَصْلِحْهُ، طَيِّب أَصْلِحْهُ عَلَى الْأَقَلِّ.

فَيُجِيبُ قَائِلاً:

ـ إِنَّ صَوْتَهُ يُذَكِّرُني بِأَشْياءَ حَمِيمَةٍ. الْبابُ عُمْرُهُ أَكْثَرُ مِنْ مِئَةِ سَنَةٍ، مَصْنُوعٌ مِنَ الْخَشَبِ الْمَتِينِ.

سَأَلْتُ أَبِي مَرَّةً:

ـ أَخْبِرْني عَنْ سِرِّ هَذَا البَابِ.

قَالَ:

ـ كُنَّا نَعِيشُ حَياةً فَقِيرَةً فَقِيرَةً، أَحْياناً يَعُودُ جَدِّي بِرِفْقَةِ أَبِي مُتَأَخِّرَينِ دُونَ طَعَامٍ، وَلَيْسَ فِي بَيْتِنَا حَبَّةُ قَمْحٍ، أَشْعُرُ بِهِما عِنْدَمَا يَدْخُلانِ، يُحَاوِلانِ إِخْفَاءَ صَوتِ الْبَابِ الْمُزْعِجِ، يَظُنَّان أَنَّنَا نَائِمُونَ، والْجُوعُ

يَمْنَعُنَا مِنَ النَّوْمِ، جَدُّكَ يَدْخُلُ بِهُدُوءٍ، يَرْتَمِي عَلَى بَلاطِ الْأَرْضِ، وَلا يَنَامُ.

أَكْمَلَ أَبِي حَدِيثَهُ وَأَنَا أُنْصِتُ بِكُلِّ اهْتِمامٍ:

ـ مَاتَ جَدِّي وتَرَكَنَا فُقَرَاءَ، لَكِنَّ حَالَنَا تَغَيَّرَ بَعْدَ مَوْتِهِ بِسِنِينَ؛ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْنَا بِالثَّراءِ.

عَمِلَ أَبِي ـ جَدُّكَ ـ بِكَثِيرٍ مِنَ الجُهْدِ والحُبِّ، فَوَفَّقَهُ اللهُ وَأَغْنَانَا بَعْدَ فَقْرٍ، وَكَانَ يُحِبُّ القِرَاءَةَ والعِلْمَ كَثِيراً، ومَضَتِ الْأَيَّامُ، وتَزَوَّجْتُ أُمَّكَ، واشْتَرَيْتُ هَذَا الْبَيْتَ الْكَبِيرَ، وتَرَكْنا البَيتَ القَدِيمَ، لَكِنِّي احْتَفَظْتُ بِالْبَابِ لِأَنَّهُ يُذَكِّرُني بِبَيْتِ جَدِّي البَسِيطِ، حَيثُ كُنَّا نَعِيشُ مَعَ أَبِي وأُمِّي وإِخْوَتِي. تَرَكْتُهُ عَلَى حَالِهِ، لَمْ أُصْلِحْهُ، لَمْ أُجَدِّدْهُ، أَحْبَبْتُ صَرِيرَهُ وإِزْعَاجَهُ، يُذَكِّرُني بِنِضَالِ جَدِّي مِنْ أَجْلِ الحَيَاةِ وأَيَّامِ الْفَقْرِ، فَلا أَنْسَى.

قُلْتُ لَهُ مُسْتَنْكِراً:

ـ وهَلْ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَتَذَكَّرَ دَائِماً هَذَا المَاضِي التَّعِيسَ.

ضَحِكَ وَقَالَ بِفَخْرٍ:

ـ وَمَتَى كَانَ الْفَقْرُ ذُلّاً وَتَعَاسَةً، وَالْغِنَى شَرَفاً وَسَعَادَةً؟ كَمْ مِنْ فَقِيرٍ غَنِيُّ النَّفْسِ! وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ فَقِيرُ النَّفْسِ!

قُلْتُ لَهُ:

ـ أَنَا أَتَّفِقُ مَعَكَ يَا أَبِي فِي كُلِّ مَا قُلْتَهُ، لَكِنَّ الْبَابَ مُزْعِجٌ، كَمَا أَنَّ شَكْلَهُ الْقَدِيمَ لا يَتَنَاسَقُ مَعَ شَكْلِ بَيْتِنَا الْحَدِيثِ.

أَدْرَكْتُ أَنَّ مَوْقِفِي ضَعِيفٌ، لَكِنْ لَيْسَ بِالْيَدِ حِيلَةٌ.

اقْتَرَبْتُ مِنَ الْبَابِ؛ أَفْتَحُهُ وأُغْلِقُهُ، وأَبِي يُنْصِتُ إِلَى صَوْتِهِ وكَأَنَّهُ مُوسِيقَى رَاقِيَةٌ.

فَجْأَةً سَمِعْتُ صَوْتاً مُتَخَيَّلاً يَنْسَابُ مِنْ بَيْنِ

تَجَاوِيفِ الْبَابِ الَّتِي حَفَرَهَا الزَّمَنُ كَتَجَاعِيدَ فِي وجهِ رجلٍ مكادِحٍ.

وَضَعْتُ أُذُنِي عَلَى الْبَابِ، سَمِعْتُه يَقُولُ لِي:

ـ يَا وَلَدُ! لَوْ تَعْلَمُ عُمرِي الْحَقِيقِيَّ لَعَلِمْتَ كَمْ أَنْتَ صَغِيرٌ أَمَامِي، لَقَدْ أَهَنْتَنِي بِكَلامِكَ، لَمْ تَحْتَرِمْ سِنِّي، سَوْفَ أُعَاقِبُكَ، ولَنْ أَسْمَحَ لَكَ بِالْمُرُورِ بَعْدَ الْيَومِ.

لَمْ أُصَدِّقْ مَا سَمِعْتُ. حَاوَلْتُ فَتْحَ الْبَابِ، كَانَ صُلْباً مِثْلَ الصَّخْرِ. حَاوَلْتُ دَفْعَهُ، كُنْتُ كَمَنْ يَدْفَعُ حَائِطاً. شَعَرْتُ أَنَّ الْبَابَ يَنْتَقِمُ مِنِّي، فَخِفْتُ عَلَى نَفْسِي.

قُلْتُ:

ـ أَتُرِيدُ حَبْسِي ومَنْعِي مِنَ الْمُرورِ؟! سَوْفَ أُحَطِّمُكَ.

رَدَّ عَلَيَّ بِثِقَةٍ:

ـ لَنْ تَجْرُؤَ، أَنَا أَقْوَى مِنْكَ بِكَثِيرٍ.

عُدْتُ إِلى غُرْفَتِي مُسْتَسْلِماً، وَعَادَ الْبَابُ إِلى سِيرَتِهِ

الأوْلَى. فَكَّرْتُ بِاسْتِخْدَامِ النَّافِذَةِ، لَيْسَتْ مُرْتَفِعَةً، يُمْكِنُنِي الْقَفْزُ بِسُهُولَةٍ.

قَفَزْتُ إِلى الْحَدِيقَةِ ولَعِبْتُ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ، ثمَّ عُدْتُ إِلى الْمَنْزِلِ بَعْدَ مُدَّةٍ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا.

شَاهَدَنِي جَارُنَا أَتَسَلَّقُ النَّافِذَةَ، اعْتَقَدَ أَنَّنِي لِصٌّ، فَاتَّصَلَ فَوْراً بِالشُّرْطَةِ، وكَانَتْ مُفَاجَأَةً لِلْجَمِيعِ، فَاعْتَذَرْتُ لَهُمْ، كَمَا اعْتَذَرْتُ لِأَبِي وَأُمِّي.

ضَحِكَ أَبي طَوِيلاً طَوِيلاً، وقَالَ ممَازِحاً:

ـ أَأَدْرَكْتَ الآنَ لِمَاذا أُحِبُّ هَذَا الْبَابَ؟ إِنَّهُ يَشْعُرُ، يَتَأَلَّمُ، يُذَكِّرُكَ بِالْمَاضِي، أُمُورٌ أَشْعُرُ بِهَا، وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ أُوصِلُهَا إِلَيْكَ.

اقْتَرَبْتُ مِنَ الْبَابِ، مَسَحْتُ بِيَدَيَّ عَلَيْهِ، قُلْتُ له:

ـ حَسَناً! لِنَكُنْ أَصْدَقَاءَ، أَلَا تَسْتَطِيعُ التَّخَلُّصَ مِنْ صَوْتِكَ الْمُزْعِجِ.

لَمْ يَتَكَلَّمِ الْبَابُ.

ضَحِكَ أَبِي وَقَال:

ـ أَتُرِيدُنَا أَنْ نُصَدِّقَ أَنَّ الْبَابَ يَتَكَلَّمُ، يُفَكِّرُ، وَيَمْنَعُكَ أَيْضاً مِنَ الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ؟!

اقْتَرَبَتْ أُمِّي وهَمَسَتْ فِي أُذُنِ أَبِي كَلِمَةً سَمِعْتُهَا:

ـ خَيَالُ ابْنِكَ وَاسِعٌ، لَا تَسْتَهْزِئْ بِهِ.

أَحْسَسْتُ أَنَّ لِلْبَابِ قُوَّةً خَفِيَّةً لَا يَعْلَمُهَا غَيْرِي. أَصْبَحْتُ أَتَرَقَّبُ سَمَاعَ صَوْتِهِ، صَرِيرَهُ، إِزْعَاجَهُ، كَأَنَّهُ يُنادِينِي لِيَحْكِي لِي قِصَصَهُ الْقَدِيمَةَ، ويَرْوِي ذِكْرِيَاتِهِ، أَخْبَرَنِي بِقِصَصِ جَدِّي، كَيْفَ كَانَ يَتْعَبُ فِي الْعَمَلِ، كَيفَ يَقْضِي مُعْظَمَ الْيَومِ خَارِجَ الْمَنْزِلِ مِنْ أَجْلِ كَسْراتٍ مِنَ الْخُبْزِ، لَمْ يَكُنْ يَحْزَنُ وَلَا يَيْأَسُ وَلَا يَفْقِدُ صَبْرَهُ.

قَالَ الْبَابُ:

ـ أَيَّامٌ طَوِيلَةٌ كَانَتْ تَمُرُّ وَلَا يَجِدُ جَدُّ أَبِيكَ وَجَدُّكَ فِيهَا عَمَلاً، كَانَا يَعْمَلانِ فِي أَيِّ شَيْءٍ، يُوَزِّعانِ الْمَاءَ، يَبِيعَانِ الثِّيابَ الْقَدِيمَةَ، يَنْقُلانِ البَضَائِعَ عَلَى ظَهْرِهِما،

وَرَغْمَ فَقْرِهِما لَمْ يَكُونَا يُغَالِيانِ فِي الْأَسْعَارِ، أَوْ يَغِشَّانِ النَّاسَ. وعِنْدَمَا كَانَا يَجْلِسَانِ فِي الْمَنْزِلِ دُونَ عَمَلٍ؛ كَانَا يُصِرَّانِ عَلَى تَعْلِيمِ أَوْلَادِهِما بِنَفْسَيْهِما، فَقَدْ كَانَا رَجُلَينِ مُتَعَلِّمَينِ يَحْفَظَانِ الْقُرْآنَ ويَقْرَآنِ كَثِيراً مِنَ الكُتُبِ المُتَنَوِّعَةِ.

أَحْبَبْتُ الْبَابَ، نَعَمْ! أَحْبَبْتُهُ مِنْ كُلِّ قَلْبِي، أَحْبَبْتُ فِيهِ جَدِّي، وَجَدَّ أَبي الَّذِي لَمْ أَرَهُ.

أَحْبَبْتُ فِيهِ حَيَاتَهُما وَإِخْلَاصَهُما وَصِدْقَهُما، كَمَا أَحْبَبْتُ جَدَّتِي الصَّابِرَةَ.

لَمْ أَعُدْ أُفَارِقُ الْبَابَ، صَارَ الْبَابُ صَدِيقِي.

قُلْتُ لِأَبِي:

ـ عِنْدَمَا أَكْبُرُ وَأَتَزَوَّجُ وَأَنْتَقِلُ إِلَى بَيْتٍ جَدِيدٍ سَآخُذُ هَذَا البَابَ مَعِي.

فَقَالَ أَبي ضَاحِكاً:

ـ أَلَنْ يُزْعِجَكَ بِصَوْتِهِ؟!

قُلْتُ بِفَرَحٍ:

ـ مَنْ قَالَ أَنَّ صَوْتَهُ مُزْعِجٌ؟! صَوْتُهُ أَجْمَلُ مِنْ صَوتِ الْبَلابِلِ، لَكِنْ بِصَرَاحَةٍ لَو كَانَ أَكْثَرَ رِقَّةً لَكَانَ أَجْمَلَ!

لَمْ يَقُلْ أَبِي شَيْئاً، لَكِنَّهُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي أَحْضَرَ عَامِلاً إِلى مَنْزِلِنَا، وَضَعَ زَيْتاً عَلَى مَفَاصِلِ الْبَابِ. نَفَّذَ أَبِي وَعْدَهُ لِي قَبْلَ سَفَرِنَا إِلَى مَالِيزيا.

كانَتْ مُفَاجَأَةً سَعِيدَةً جِدّاً.

سَمِعْتُهُ يَقُولُ:

ـ هَكَذا لَنْ يَعُودَ الْبَابُ يُزْعِجُ أَحَداً.

قُلْتُ لَهُ:

ـ أَشْكُرُكَ يَا أَبِي، لَقَدْ أَحْبَبْتُ الْبَابَ مِثْلَكَ تَمَاماً، اخْتَفَى صَوْتُهُ الْمُزْعِجُ وَبقِيَتْ ذِكْرَيَاتُهُ الْجَمِيلَةُ.

وانْتَهَتْ قِصَّةُ البَابِ المُزْعِجِ، وَبَدَأْنَا التَّحْضِيرَ لِرِحْلَةِ مَالِيزيا المُشَوِّقَةِ.

❁ ❁ ❁

صَدِيقُ جَدِّي

وَقَبْلَ السَّفَرِ إلى مَاليزيا كَانَ هُنَاكَ أَمْرٌ آخَرُ عَلَيَّ القِيامُ بِهِ، وَتَحْديداً فِي بَيْتِ جَدِّي، حَيْثُ تُوجَدُ غُرْفَةٌ تَظَلُّ مُغْلَقَةً بِاسْتِمْرَارٍ.

وكُنْتُ قَدْ سَأَلْتُ جَدِّي عَنْ هَذِهِ الغُرْفَةِ فَلَمْ يُجِبْنِي، لَكِنَّه قَالَ لي بَعْدَ إِلْحاحٍ:

ـ هَذِهِ غُرْفَةُ صَدِيقِي.

اسْتَغْرَبْتُ ذَلِكَ، لأَنِّي لا أَرَى أَحَداً يَدْخُلُ أَوْ يَخْرُجُ مِنَ الغُرْفَةِ غَيرَ جَدِّي، ولا أَسْمَعُ مِنْ داخِلِها أَيَّ صَوْتٍ.

سَأَلْتُ أُمِّي وَأَبِي عَنْ هَذِهِ الغُرْفَةِ، فَقَالا لِي أَنَّهُما

لا يَعْرِفانِ تَماماً مَا بِداخِلِهَا. أَخْبَرَانِي أَنَّها غُرْفَةٌ خاصَّةٌ بِجَدِّي، يَجْلِسُ فِيهَا سَاعَاتٍ طَويلَةً.

رَجُوْتُ جَدِّي السَّمَاحَ لِي بِدُخُولِها، لَكِنَّهُ رَفَضَ. كَرَّرْتُ الرَّجَاءَ مَرَّاتٍ ومَرَّاتٍ، لَكِنَّ الإِجابَةَ كَانَتْ واحِدَةً.

وفي أَحَدِ الأَيَّامِ فَاجَأَنِي جَدِّي بِقَولِهِ:

ـ بِمَا أَنَّكَ رَاغبٌ بِدُخُولِ الغُرْفَةِ واكْتِشافِ ما فِيها، فَإِنِّي سَأَمْنَحُكَ هَذا الشَّرَفَ وَأُعْطِيكَ مِفْتاحَها عِندَما تَكْبُرُ.

أَجَبْتُهُ عَلَى الفَوْرِ:

ـ أَنَا كَبيرٌ، لَقَد أَصْبَحَ عُمري عَشْرَ سِنينَ، وأُرِيدُ مَعْرِفَةَ مَا فِيها قَبْلَ أَنْ أُسَافِرَ إِلَى مَاليزيا.

ضَحِكَ جَدِّي حَتَّى سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ الصِّنَاعِيَّةُ عَلَى الأَرْضِ. وَقَالَ بِصَوتٍ مُبْتَهِجٍ وَحُرُوفٍ مُتَعَثِّرَةٍ مُبَعْثَرَةٍ:

ـ لا بَأْسَ! لا بَأْسَ. قَبْلَ أَنْ تُسافِرَ إِذَاً. غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ، غَدَاً سَأُعْطِيكَ مفتَاحَ الغُرْفَةِ.

ذَهَبْتُ إِلى بَيتِنا وَأَنَا أَحْلُمُ بِتِلْكَ الغُرْفَةِ، وَصُرْتُ أُفَكِّرُ بِمُحْتَوَياتِها، وأَعُدُّ السَّاعَاتِ.

وَفِي صَباحِ اليَومِ التَّالي، لَبِسْتُ أَحْلَى ثِيابي، وذَهَبْتُ إِلى بَيْتِ جَدِّي المُجَاوِرِ لِبَيتِنَا، ومَا أَنْ فَتَحَ جَدِّي البَابَ حَتَّى قُلْتُ لَهُ:

ـ هَا قَدْ أَتَى اليَومُ المَوعُودُ يَا جَدِّي، هَيَّا أَعْطِنِي مُفْتَاحَ الغُرْفَةِ.

فَضَحِكَ جَدِّي هَذِهِ المَرَّةَ أَكْثَرَ مِنَ المَرَّةِ السَّابِقَةِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَضَعُ أَسْنَانَهُ، وَقَالَ بِكَلِمَاتٍ مُكَسَّرَةٍ:

ـ أَنْتَ طِفْلٌ عَنِيدٌ. أَلَا تَعْرِفُ الصَّبْرَ؟!

ثمَّ قَالَ بِمَرَحٍ زَائِدٍ:

ـ لَقَدْ كُنْتُ مُتَأَكِّداً أَنَّكَ سَتَأْتِي اليَومَ مُبَكِّراً. هَا هُوَ المُفْتَاحُ، تَفَضَّلْ.

أَخَذْتُ المُفْتاحَ بِسُرْعَةٍ، وسِرْتُ بِاتِّجاهِ الغُرْفَةِ فَوْراً، وَدُونَ أَنْ أُضيعَ دَقِيقَةً وَاحِدَةً، سَمِعْتُ دَقَّاتِ قَلْبِي مِنْ شِدَّتِها.

فَتَحْتُ البَابَ بِهُدُوءٍ، وَدَخَلْتُ الغُرْفَةَ. وَقَفْتُ في الوَسَطِ، فَوْقَ بِساطٍ أَخْضَرَ كَبيرٍ، صِرْتُ أَدُورُ، وأَدُورُ، أَتَأَمَّلُ جُدْراناً مِنَ الكُتُبِ مَصْفُوفَةً بِعِنايَةٍ وَتَرْتِيبٍ.

لَحِقَني جَدِّي، وقَالَ:

ـ لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ الرَّكْضَ مِثْلَكَ، أَظُنُّكَ مُسْتَغْرِباً. لَقَدْ جَمَعْتُ هَذِهِ الكُتُبَ مُنْذُ أَنْ كُنْتُ في سِنِّكَ، هَلْ تُرِيدُها؟ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُحِبُّ القِرَاءَةَ، إِنَّها لَكَ مُنْذُ الآنَ، رُبَّما تَفْعَلُ بِها ما يَجِبُ أَنْ تَفْعَلَهُ. ثمَّ خَرَجَ جَدِّي مِنَ الغُرْفَةِ وَتَرَكَني وَحِيداً.

بَقيتُ سَاعَاتٍ أَتَنَقَّلُ مِنْ كِتابٍ إلى كِتابٍ، حَتَّى أَنْهَكَنيَ التَّعَبُ، وجَلَسْتُ في رُكْنٍ جَانِبيٍّ، وَأَسْنَدْتُ

رَأْسِي إلى كِتابٍ كَبيرٍ، وَأَغْمَضْتُ عَينيَّ قليلاً. وبَعْدَ دَقَائِقَ، سَمِعْتُ أَصْوَاتًا غَرِيبَةً.

فَتَحْتُ عَيْنيَّ فَرَأَيْتُ مَجْمُوعَةً مِنَ الكُتُبِ تَتَّجِهُ نَحْوي، شَعَرْتُ بِخَوفٍ شَدِيدٍ، وَأَغْلَقْتُ عَينيَّ بِسُرْعَةٍ. اقْتَرَبَتِ الكُتُبُ مِنِّي، وسَمِعْتُ صَوتاً وَقوراً يَقولُ:

ـ مُنْذُ زَمَنٍ لَمْ نَعُدْ نَرَى أَحَداً مِنَ النَّاسِ غَيرَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الشَّيخِ، لَقَدْ سَجَنَنا صَاحِبُنا فِي هَذِهِ الغُرْفَةِ، مَا أَجْمَلَ هَذا الصَّبيَّ!

فَقَالَ كِتَابٌ آخَرُ:

ـ مَعَكَ حَقٌّ! كَمَا أَنَّهُ مُجْتَهِدٌ أَيْضَاً، لَقَدْ قَرَأَ كُتُباً كَثِيرَةً فِي وَقْتٍ قصيرٍ.

وَسَمِعْتُ صَوْتَ كِتَابٍ عَجُوزٍ:

ـ لَقَدْ كُنَّا فِي المَاضِي نَدُورُ مِنْ يَدٍ إلى أُخْرَى، وَلَمْ نَكُنْ نَتْعَبُ أَبَداً أَوْ نَنْزَعِجُ، والآنَ أَصَابَنَا المَلَلُ. إِنَّنِي أَكَادُ أَخْتَنِقُ مِنْ هَذِهِ الغُرْفَةِ.

هُنا، قَالَ كِتَابٌ يَبْدو مِنْ صَوْتِهِ أَنَّهُ فِي مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ:

ـ كَمْ أَتَمَنَّى أَنْ يَكونَ هَذَا الطِّفْلُ الجَمِيلُ وَريثاً لِجَدِّهِ، فَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ يَسْمَحُ لأَحَدٍ بِزِيَارَتِنَا.

تَحَرَّكْتُ قَلِيلاً، فَأَسْرَعَتِ الكُتُبُ إِلَى أَمَاكِنِهَا.

قُمْتُ مِنْ مَكَاني، وَخَرَجْتُ لأَسْتَأْذِنَ جَدِّي بِنَقْلِ هَذِهِ الكُتُبِ العَظِيمَةِ وَالحَكِيمَةِ إِلَى مَكْتَبَةٍ عَامَّةٍ، لِيَنْتَفِعَ بِهَا جَمِيعُ النَّاسِ.

رَحَّبَ جَدِّي بِالفِكْرَةِ وَقَالَ:

ـ كَمْ تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَكَ! لَمْ أَكُنْ أَجْرُؤُ عَلَى ذَلِكَ، لَكِنِّي سَأَزُورُ المَكْتَبَةَ مِنْ حِينٍ لآخَرَ، لأَنَّ الكِتَابَ يَبْقَى صَدِيقي.

قُلْتُ لَهُ:

ـ بَعْدَ رِحْلَةِ ماليزيا سَتَكُونُ أَمَامِي مَهَمَّةٌ كَبيرَةٌ بِنَقْلِ الكُتُبِ إِلَى المَكْتَبَةِ العامَّةِ، حَيْثُ يَنْتَفِعُ بِهَا كُلُّ النَّاسِ.

الآنَ الوَقْتُ ضَيِّقٌ، وَلا يَسْمَحُ بِتَنْفِيذِ هَذِهِ الفِكْرَةِ. عِنْدَما نَعُودُ مِنْ مَالِيزيا نَبْدَأُ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ.

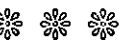

مِنَ الكُوَيْتِ إِلى مَالِيزيَا

عِنْدَمَا رَكِبْنَا الطَّائِرةَ فِي مَطارِ الكُوَيتِ، لمْ أَكُنْ مُرْتَاحاً كَثِيراً، لأَنِّي كُنْتُ أُفَكِّرُ بِبُعْدِ المَسَافَةِ، فَأَنَا لمْ أَعْتَدِ الجُلُوسَ فَتْرَةً طَوِيلَةً في مَقْعَدٍ وَاحِدٍ، فَالرِّحْلَةُ سَتَكُونُ طَويلَةً ومُرْهِقَةً.

بَدَأَتِ الرِّحْلَةُ مِنَ الكُوَيتِ بِالشَّكْوَى، فَقَدْ كَانَتْ مَسافَةُ السَّفَرِ تُقْلِقُنِي، وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الفَتْرَةَ قَصِيرَةٌ نِسْبِيًّاً إِلى مَدِينَةِ دُبي فَإِنَّ المَسَافَةَ الإِجْمَالِيَّةَ كَانَتْ تُسَيطِرُ عَلَى تَفْكِيري.

أَقَلُّ مِنْ سَاعَتَينِ قَضَينَاهَا بِالطَّائِرَةِ، وَوَصَلْنا إِلَى مَطارِ دُبي فِي دَوْلَةِ الإِمارَاتِ العَرَبِيَّةِ، لَكِنَّ المُشْكِلَةَ بِالنِّسْبَةِ لِي أَنَّنَا سَنَبْقَى فِي الطَّائِرَةِ نَنْتَظِرُ مَوعِدَ الإِقْلاعِ

مِنْ جَدِيدٍ، والانْتِظارُ مُمِلٌّ مُزْعِجٌ، حَيْثُ كَانَ مُقَرَّراً أَنْ نَقْضِيَ سَاعَةً وَاحِدَةً دَاخِلَ الطَّائِرَةِ التي هَبَطَتْ عَلَى أَرْضِ مَطارِ دُبي دُونَ أَنْ يَسْمَحُوا لَنَا بِمُغَادَرَتِها لأَنَّ الوَقْتَ قَصِيرٌ.

وَكُنْتُ أَحْمِلُ في حَقِيبَتي عَدَداً مِنَ الكُتُبِ التي أُحِبُّها، كَما أَحْضَرْتُ مَعِي جِهازَ الآيبادِ لِيَكُونَ رَفِيقِي في الرِّحْلَةِ، بَعْدَ أَنْ مَلأْتُهُ بِكَثيرٍ مِنَ الأَلْعابِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُسَلِّياً، فَأَشْغَلْتُ نَفْسِي بِالقِراءَةِ، وبِالنَّظَرِ إِلى النَّاسِ مِنْ حَولِي.

ومَا أَنْ حَطَّتِ الطَّائِرَةُ وَاسْتَقَرَّتْ فِي مَكانِها المُحَدَّدِ؛ حَتَّى بَدَأَ الرُّكَّابُ الذينَ كَانَتْ وِجْهَتُهُمْ إِلى دُبي، أَوْ إِلى غَيرِهَا مِنَ المُدُنِ بِمُغادَرَةِ الطَّائِرَةِ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ بَدَأَ الرُّكَّابُ المُغَادِرُونَ إِلى مَالِيزيا بِالصُّعُودِ، وَكَانَ مُعْظَمُهُمْ كَمَا يَبْدُو مِنْ مَالِيزيا، وكُنْتُ سَعِيداً جِدّاً بِأَنْ أَرَى هَذَا العَدَدَ الكَبيرَ مِنَ المَالِيزيين،

تَمْهيداً لِرُؤْيَةِ العَدَدِ الأَكْبَرِ. فَأَنا مُتَحَمِّسٌ جِدّاً لِلتَّعَرُّفِ عَلَى هَذِه البِلادِ وَعَلَى شَعْبِها المِضْيافِ، كَمَا يَقُولُ عَنْهُ الكَثِيرُونَ.

وَبَعْدَ أَنِ انْقَضَتْ سَاعَةٌ كَامِلَةٌ، وامْتَلأَتِ الطَّائِرَةُ بِرُكَّابِها المُتَوجِّهِينَ مُبَاشَرةً إِلَى مَالِيزيا؛ حَانَ مَوعِدُ إِقْلاعِ الطَّائِرَةِ مِنْ جَديدٍ، لَكِنْ فَجْأَةً حَدَثَ أَمْرٌ عَكَّرَ مِزاجَ الرُّكَّابِ جَمِيعاً.

أُغْلِقَتِ الأَبْوابُ وَبَدَأَتِ الطَّائِرَةُ تَتَحَرَّكُ مِنْ مَكَانِها، لَكِنَّنَا سَمِعْنا أَصْواتاً قَوِيَّةً مُرْعِبَةً لَمْ نَعْرِفْ مَصْدَرَها.

مَضَتْ دَقَائِقُ وَالطَّائِرَةُ فِي مَكَانِهَا، ثُمَّ تَحَدَّثَ قَائِدُ الطَّائِرَةِ بِمُكَبِّرِ الصَّوْتِ مُعْتَذِراً، طالِباً مِنْ جَمِيعِ الرُّكَّابِ الخُرُوجَ مِنَ الطَّائِرَةِ لِعُطْلٍ طَارِئٍ، مُطَمْئِناً أَنَّهُ سَيَتِمُّ قَرِيباً وبِسُرْعَةٍ إِصْلاحُ العُطْلِ.

كَانَ الأَمْرُ مُزْعِجاً بِالفِعْلِ، كُنْتُ أَتَرَقَّبُ الوُصولَ

إلى مَالِيزيا بِأَسْرَعِ وَقْتٍ، لَكِنَّ أَبِي أَرَادَ أَنْ يُخَفِّفَ عَنَّا الضِّيقَ الذي انْتَابَنا بِالقَولِ:

ـ إِنَّها فُرْصَةٌ لنَا لِكَي نَزُورَ الأَسْواقَ الجَمِيلَةَ في المَطارِ، وَنَرتاحَ قَليلاً.

ومَا أَنْ وَصَلْنَا بَابَ الطَّائِرَةِ حَتَّى قَدَّمَتْ لَنَا المُضِيفَةُ بِطاقَةَ أَحَدِ المَطاعِمِ في المَطارِ لِتَناوُلِ وَجْبَةِ الطَّعَامِ وَالاسْتِراحَةِ حَتَّى الانْتِهاءِ مِنْ إِصْلاحِ العُطْلِ.

أَخِي الصَّغِيرُ كانَ سَعِيداً بِما رَآهُ مِنْ حَرَكَةٍ كَثِيفَةٍ دَاخِلَ المَطارِ، وَصُرْنا نَدُورُ مِنْ مَكانٍ إِلَى آخَرَ.

مَضَى الوَقْتُ سَرِيعاً بِالتَّنَقُّلِ مِنْ مَتْجَرٍ إِلى مَتْجَرٍ، وَقَبْلَ أَنْ نَصِلَ إِلى المَطْعَمِ المَقْصودِ؛ سَمِعْنا مُنَادِياً يَطْلُبُ مِنْ رُكَّابِ الطَّائِرَةِ المُتَوَجِّهَةِ إِلى مَالِيزيا العَوْدَةَ فَوْراً إِلَى الطَّائِرَةِ. فَعُدْنَا إِلى الطَّائِرَةِ عَلَى عَجَلٍ، دُونَ أَنْ نَتَناوَلَ طَعَامَنَا.

وفي الطَّائِرَةِ عَادَ المَلَلُ يَتَسَرَّبُ إلَى نَفْسِي بَعْدَ أَنْ حَلَّقْنا في الأَجْواءِ مِنْ جَدِيدٍ بِسَلامٍ.

لَمْ أَسْتَطِعِ القِرَاءَةَ ولَمْ أَرْغَبْ بِاللَّعِبِ بِالآيبادِ، وَلَمْ تُعْجِبْني أَيْضاً الأَفْلامُ التي تَعْرِضُها الرِّحْلَةُ، فَأَغْمَضْتُ عَينيَّ وَغَرِقْتُ ـ لِحُسْنِ الحَظِّ ـ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

واسْتَيْقَظْتُ بَعْدَ سَاعاتٍ عَلَى صَوْتِ أُمِّي تَقُولُ لِي:

ـ هَيّا اسْتَعِدَّ يَا صَالِح، عَدِّلْ مقْعَدَكَ، لَقَدْ وَصَلْنا إلى مَالِيزيا، الطَّائِرَةُ سَتَحُطُّ قَرِيباً في مَطارِ العَاصِمَةِ كوالالمبور. مَرْحَباً بِكَ يَا صَالِحُ فِي مَاليزيا.

وَبعْدَ أَنْ وَصَلْنا إلى المَطارِ، رَكِبْنا سَيَّارَةً كانَتْ تَنْتَظِرُنا، وَنقَلَتْنا خِلالَ سَاعَةٍ وَنِصْفٍ تَقْرِيباً إلى مَكانِ إقامَتِنا في الشَّالِيه الذي اسْتَأْجَرَهُ أَبِي قَبْلَ سَفَرِنا.

وفي الشَّالِيه طَلَبَتْ أُمِّي مِنْ أَبِي وأَخِي الصَّغِيرِ أَنْ يَهْتَمَّا بِفَتْحِ الحَقائِبِ وَتَوضِيبِ الثِّيابِ فِي أَمَاكِنِها، لَكِنَّ

أَبِي وأَخِي اسْتَلْقَيا عَلَى الكَنَبَةِ فِي صَالَةِ الاسْتِقْبَالِ، وَكَانَتْ عَلامَاتُ التَّعَبِ والإِرْهَاقِ تَبْدُو عَلَيهِمَا.

لَمْ تَكُنْ أُمِّي تُرِيدُ تَضْيِيعَ جَمَالِيَّةِ لَحَظَاتِ الوُصولِ؛ فَعَرَضَتْ عَلَيَّ مُرَافَقَتَها قَبْلَ أَنْ نَرتاحَ وَنُغَيِّرَ مَلابِسَنَا، لِلقِيامِ بِجَوْلَةٍ قَصِيرَةٍ عَلَى الشَّاطِئِ القَرِيبِ مِنَ الشَّالِيه.

كُنْتُ أَشْعُرُ بِالتَّعَبِ، وَأُرِيدُ أَنْ أَرْتاحَ رَغْمَ أَنِّي نِمْتُ لِسَاعَاتٍ في الطَّائِرَةِ، لَكِنِّي اسْتَجَبْتُ لِدَعْوَةِ أُمِّي لِكَي لا أَحْرِمَها مِنْ مُتْعَةِ التَّنَزُّهِ عَلَى الشَّاطِئِ، لأَنِّي إِنْ لَمْ أَذْهَبْ مَعَها فَلا أَظُنُّها سَوفَ تَذْهَبُ لِوَحْدِها.

كَانَ الشَّاطِئُ عِبارَةً عَنْ مَرْسَى لِلسُّفُنِ وَالمَرَاكِبِ السِّياحِيَّةِ الصَّغِيرَةِ.

مَشَينا قَلِيلاً، فَشَعَرْتُ بِنَسِيمٍ بَارِدٍ يَخْتَرِقُ مَلابِسِي. تَنَشَّقْتُ هَواءً مَالِحاً لَهُ رَائِحَةٌ عَجِيبَةٌ، كَأَنَّها رَائِحَةُ سَمَكٍ يَطِيرُ في الهَواءِ. شَعَرْتُ بِإِحْساسٍ غَرِيبٍ رَائِعٍ.

مَشَينا عَلَى جَسْرٍ طَوِيلٍ، ومِنْ تَحْتِنا المَاءُ والأَمْواجُ تَتَهادَى بِسُكُونٍ.

الجِسْرُ كَانَ مَصْنُوعاً مِنْ قِطَعٍ خَشَبِيَّةٍ مُتَعَرِّجَةٍ مَلِيئَةٍ بِالنُّتوءَاتِ وَالثُّقُوبِ، وَبَينَ كُلِّ قِطْعَةٍ وأُخْرَى مَسَافَةٌ صَغِيرةٌ تَسمَحُ بِأنْ نَرى مَوجَ البَحرِ يَتَرَاقَصُ تَحْتَ أَقْدَامِنا، وبَعْضَ الأَسْماكِ الصَّغِيرَةِ تُطِلُّ بِرَأْسِها بِأَمانٍ ثُمَّ تَغُوصُ بِسَلامٍ.

وهَذِهِ كَانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَرَى فِيها عُيُونَ الأَسْمَاكِ البَرَّاقَةِ وهي تَسْبَحُ عَلَى صَفْحَةِ المَاءِ في ظَاهِرِ البَحْرِ، وَقِسْمٌ مِنْ جِسْمِها يَلْمَعُ تَحْتَ الشَّمْسِ.

الهَواءُ كَانَ يَعْبُرُ مِنْ فَتَحَاتِ الجِسْرِ، وَيَمُرُّ صَاعِداً نَحْوَ جَبِيني مُباشَرَةً.

لَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ بِالذَّهابِ بَعِيداً أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِالبُرُودَةِ وَبِمَزيدٍ مِنَ الإِرْهاقِ، لَكِنِّي لَمْ أُرِدْ أَنْ أَقْطَعَ عَنْ أُمِّي فُرْصَةَ الاسْتِمْتَاعِ بِالطَّبِيعَةِ الجَمِيلَةِ وَهَواءِ

البَحْرِ المُنْعِشِ. أَرَدْتُ العَوْدَةَ مَعاً إِلى مَكانِ إِقَامَتِنا لِنَرْتَاحَ مِنْ عَناءِ السَّفَرِ.

لا أُرِيدُ العَودَةَ وَحْدِي، فَأَنا لا أَعْرِفُ الطُّرُقاتِ وأَخْشَى أَنْ أَضِيعَ، لِذا عَلَيَّ أَنْ أَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ حَتَّى تَنْتَهي أُمِّي مِنْ جَوْلَتِها. أَخَذْتُ نَفَساً عَمِيقاً، نَظَرْتُ إِلى البَعِيدِ البَعِيدِ بِشَكْلٍ مُسْتَقِيمٍ. وَظَلَلْتُ أَمْشِي بِثَباتٍ، والهَواءُ يَشْتَدُّ عُنْفاً.

أَمْسَكَتْ أُمِّي كَتِفِي بِيَدِها وَضَمَّتْني بِقُوَّةٍ إِلى جَانِبِها الأَيمَنِ، يَبْدُو أَنَّها شَعَرَتْ هِيَ أَيْضاً بِلَفْحَةٍ مِنَ البَرْدِ. وَفِي النِّهايَةِ عُدْنا وقَدْ قارَبَتِ الشَّمْسُ عَلَى الغُروبِ.

أَضاءَتْ أُمِّي جَمِيعَ لَمْباتِ البَهْوِ الخَارِجِيِّ لِلشاليه لِكَي نُشاهِدَ البَحْرَ والطَّبِيعَةَ مِنْ حَوْلِنا بِوُضوحٍ تَامٍّ.

قَضَينا سَهْرَةً قَصِيرَةً جِدّاً، حَيْثُ غَلَبَنا النُّعاسُ بَعْدَ أَنْ تَناوَلْنَا العَشَاءَ، فَقَدْ كُنَّا جَمِيعاً نَشْعُرُ بِتَعَبٍ شَدِيدٍ.

ومَا أَنْ وَضَعْنا رَأْسَنا عَلَى الوِسَادَةِ، حَتَّى غَرِقْنا فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

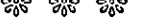

أَحْلامُ نِهَايَاتِ البَحْرِ

في الصَّبَاحِ البَاكِرِ مِنَ اليَوم التَّالِي؛ اسْتَيْقَظْنا جَمِيعاً ـ أنَا وَأُمِّي وأَبِي وأَخِي الصَّغِيرُ مُبَارَكٌ ـ ونَحْنُ نَشْعُرُ بِنَشَاطٍ كَبيرٍ، وَذَهَبْنا بِكُلِّ حَمَاسَةٍ لِنَرْكُضَ مَعاً عَلَى الشَّاطِئِ.

كَانَ الهَواءُ مَنْعِشاً والشَّمْسُ مُشْرِقَةً وَالنَّسَمَاتُ خَفِيفةً رَطبَةً.

أُمِّي قَالَتْ لِي وَأنَا أُرَاقِبُ حَرَكَاتِ بَعضِ الأشْياءِ الصَّغيرةِ التي تَتَحَرَّكُ بِطَرِيقَةٍ مُضْحِكَةٍ عَلَى رَمْلِ الشَّاطِئِ:

ـ هَلْ تُصَدِّقُ يَا صَالِحُ أَنِّي فِي طُفُولَتِي أَشْبَهُ مَا تَفْعَلُهُ الآنَ؟ فَقَدْ كُنْتُ أُحِبُّ الذَّهَابَ إلَى الشَّاطِئِ

وَمُرَاقَبَةَ الحَيَواناتِ الشَّاطِئِيَّةِ الصَّغِيرَةِ وَهي تَمْشِي وتُهَرْوِلُ وَتَصْعَدُ وَتَهْبطُ.

وَبِالفِعْلِ؛ كانَ مَشْهَدُ تِلْكَ المَخْلوقَاتِ الشَّاطِئِيَّةِ الصَّغِيرَةِ مُضْحِكاً وَهِي تَرْكُضُ فِرَاراً مِنِّي عِنْدَما تَشْعُرُ بِاقْتِرابِي مِنْها. كَما رَأَيْتُ طُيورَ النَّورَسِ الجَمِيلَةَ وَهِيَ تُحَلِّقُ بَينَ الأَمْوَاجِ والسَّمَاءِ.

صُرْتُ أَرْكُضُ بِمَرَحٍ نَحْوَ الطُّيورِ كُلَّما اقْتَرَبْتُ مِنَ الشَّاطِئِ، إِنَّها مُتْعَةٌ لا تُوصَفُ.

لَقَدْ كانَ عَقْلِي الصَّغِيرُ يُوهِمُنِي ـ فِيما مَضَى ـ أَنَّ البَحْرَ يَنْتَهِي عِنْدَ مُنْتَهَى النَّظَرِ، وَكُنْتُ أَظُنُّ وَاهِماً أَنَّ الشَّمْسَ وَقْتَ المَغِيبِ تَغْسِلُ وَجْهَها بِماءِ البَحْرِ، وَتَسْتَرِيْحُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ عَنَاء عَمَلِها طِوالَ النَّهارِ فَتَنامُ لَيْلاً حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ.

اعْتَقَدْتُ طَويلاً، وَلَمْ أَسْأَلِ النَّاسَ مُتَحَقِّقاً مِنْ

صِحَّةِ اعْتِقادِي، رُبَّما لأَنَّني أُحِبُّ دائِماً الاحْتَفَاظَ بِخَيَالاتِي «المُتَحَمِّسَةِ» كَيلا تَدُوسَها خُيولُ الحَقِيقَةِ.

واعْتَقَدْتُ ـ وَاهِماً أَيْضاً ـ أَنَّ خَطَّ نِهايَةِ البَحْرِ الوَهْمِيِّ فِي عَقْلَي يَسْكُنُ سَدّاً صُلْباً، يَحُولُ دُونَ تَسَرُّبِ الماءِ مِنَ البَحْرِ، فَلا يَتَحَوَّلُ إلى وادٍ سَحِيقٍ عَمِيقٍ. سَدٌّ يَقِفُ كَالجَبَلِ الشَّامِخِ، يَحْجزُ المَاءَ عَنْ تَدَفُّقِهِ.

ظَنَنْتُ أَنَّ العَالَمَ يَنْتَهِي عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ، وأَنَّ المَاءَ لو تَسَرَّبَ مِنْ فَجْوَةٍ مَا لَسَالَ فِي الفَضَاءِ.

يَـــاااا اللهَ!

يَا لَهُ مِنْ خَيَالٍ خَصْبٍ جَامِحٍ مُضْحِكٍ.

وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ أَكُنْ أَنْوِي تَغْيِيرَ «الحَقِيقَةِ»، لكنِّي اكتشفتُ ـ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ مِنِّي ـ أَنَّ الأَحْلَامَ شَيءٌ وَ«البَحْرَ» شَيءٌ آخَرُ.

وهُنَا اسْتَعْدَدْتُ ـ وَفِي هَذِه اللَّحَظاتِ تَمَاماً ـ

للرِّحْلَةِ البَحْرِيَّةِ التي اصْطَحَبَني إِلَيْها أَبي قَبْلَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ.

نَظَرْتُ خِلَالَها إِلى بَعِيدٍ بَعِيدٍ، وكُلَّما أَوْغَلَتِ السَّفِينَةُ فِي أَعْمَاقِ البَحْرِ؛ ابْتَعَدَ السَّدُّ الوَهْمِيُّ عَنِّي حَتَّى كادَ يَتَلاشَى. وكُنْتُ أَحْسبُ أَنِّي أَقْتَرِبُ مِنْهُ.

لَمْ أَجْرُؤْ يَوماً عَلَى البَوْحِ بِهَذا الوَهْمِ «الحَقِيقَةِ»، وَدَدْتُ الصُّراخَ بِأَعْلَى صَوتٍ، آمُرُ البَحَّارَةَ بِأَنْ يَقُودُوا السَّفِينةَ نَحْوَ «السَّدِّ»، كانَتْ ضَرَباتُ قَلبي تَشْتَدُّ بِارْتِفَاعِ السَّفِينَةِ وَهبُوطِها.

صَعَدْتُ إِلَى أَعْلَى مَكانٍ فِي السَّفِينَةِ، سَاعَدَنِي أَحَدُ البَحَّارَةِ لأَصِلَ إِلى مَنارَةِ السَّفِينَةِ، وأَعْطانِي مِنْظاراً كَبِيراً، ظَنَنْتُ أَنِّي أَخِيْراً سَأُشَاهِدُ نِهَايَةَ البَحْرِ.

اعْتَقَدَ البَحَّارُ أَنَّني سَعِيدٌ بِمَا أَرَاهُ مِنْ بَحْرٍ عَظِيمٍ. صُرْتُ أَبْحَثُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ. أَبْحَثُ عَنْ نِهَايَةٍ للبَحْرِ، لَا عَنْ هَيبَةٍ له أَوْ جَلالٍ.

تَخَيَّلْتُ فِي عَقْلِي الصَّغِيرِ كَيفَ يُمْكِنُ لِلبَحْرِ أَنْ يَتَجَمَّدَ فِي نُقْطَةٍ مَا مِنَ الأَرْضِ، وَيُصْبِحَ صُلْباً كَالصَّخْرِ، وَفِيمَا بَعْدُ اكْتَشَفْتُ وَهْمَ طُفُولَتي؛ أَحْلامَ نِهَايَاتِ البَحْرِ، فَحَزِنْتُ.

نَعَم! حَزِنْتُ عِنْدَما اكْتَشَفْتُ بَرَاءَةَ الأَحْلَامِ مِنْ حَقِيقَتِها، غَيرَ أَنَّ بَعْضَ أَحْلامي الصَّغِيرَةِ تَحَقَّقَتْ. وَرَضيْتُ بِالفُتاتِ مِنْ بَقَايا طُفُولَةٍ بَهِيَّةٍ سَّاحِرَةٍ.

وعَلِمْتُ أَنَّ فِي الأَرْضِ قِطَعاً مِنْ بَحْرٍ مُتَجَمِّدٍ، وَأَنَّ البَحْرَ يُصْبِحُ جَامِداً كَالصَّخْرِ. وعَرَفْتُ أَنَّ هُناكَ مَناطِقَ شَاسِعَةً مُتَجَمِّدَةٌ تَمَاماً، وَأَنَّ الحَرارَةَ عِنْدَ طَرَفَي الأَرْضِ في شَمالِها وجَنُوبِها ومَا يُحِيطُ بِنُقْطَةِ ارْتِكازِها التي نَرَاها في مُجَسَّمَاتِ أَرْضِيَّةٍ، تَهْبطُ بِشَكْلٍ مُخِيفٍ، ويُصْبِحُ مِيزانُ الحَرَارَةِ دَائِماً تَحْتَ الصِّفْرِ بِعَشَراتِ الدَّرَجاتِ.

رَأَيْتُ كَيفَ يُصْبِحُ هَذا البَحْرُ الهَادِرُ قِطْعَةً مِنَ

أَرْضٍ، وَكَيفَ يَمْضِي النَّاسُ بِعَرَباتٍ دُونَ عَجَلاتٍ، بَلْ بِمَزالِقَ حَدِيدِيَّةٍ مُرَوَّسَةٍ مُتَزَحْلِقَةٍ، تَجُرُّها كِلابٌ فَوْقَ مَاءٍ مُتَجَمِّدٍ.

وَهُنَاكَ يَحْفرُ الصَيَّادُونَ «البَحْرَ»، يَشُقُّونَهُ بِفَأْسٍ أَوْ مِنشارٍ، لَا لِيَغْرسُوا شَجَرَةً؛ بَلْ لِيَرْمُوا خُيُوطَ صُيُودِهِمُ الدَّقِيقَةَ، وفي رَأْسِها حَديدَةٌ مُسَنَّنَةٌ عَلَيها شَرِيحَةُ سَمَكٍ شَهِيَّةٌ، تَجْذبُ رَائِحَتُها الأَسْمَاكَ مِنْ أَعْماقِ بَحْرٍ مُتَجَمِّدٍ في قِمَّتِهِ، سَائلٍ فِي قَعْرِهِ.

تَخَيَّلْتُ في عَقْلِي ـ الذي مَازَالَ يَحْلُمُ ـ كَيفَ يَسْتَقِرُّ الجَامِدُ فَوقَ مُتَحَرِّكٍ، وَكَيفَ يَحْفَظُ البَارِدُ الدَّافِئَ، وَكَيفَ يَثْبُتُ النَّاسُ ويَسِيرونَ بِهُدوءٍ وَسُكونٍ واطْمِئْنانٍ فَوْقَ جَلِيدٍ يُخْفِي أَمْتاراً مِنْ أَعْماقٍ مَائِيَّةٍ مُتَحَرِّكَةٍ.

ودُهِشْتُ أَكْثَر عِنْدَما رَأَيْتُ فِي السَّابِقِ جِبالاً ناصِعَةَ البَيَاضِ، وَعلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ الجِبالَ الضَّخْمَةَ لَيْسَتْ سِوَى قِمَمٍ لجِبالٍ مَخْفِيَّةٍ، وأَنَّ مَا فِي البَحْرِ مِنْها مَا هُوَ

أَضْخَمُ بِمَرَّاتٍ مِنْ قِمَمِها الظَّاهِرَةِ. ولاحَظْتُ أَنَّ بُيوتَ سُكَّانِ القُطْبِ المُتَجَمِّدِ هي مِنْ صَخْرٍ مَائِيٍّ مُتَجَلِّدٍ، وعَجِبْتُ كَيفَ أَنَّ بُيُوتَهُمْ هَذِهِ مَصْنُوعَةٌ مِنْ قِطَعِ ثَلْجٍ مَرْصُوصَةٍ بِدِقَّةٍ بَالِغَةٍ، وبِطَرِيقَةٍ عَجِيبَةٍ، تَجْعَلُ البَيتَ دَافِئاً مِنَ الدَّاخِلِ، فَلا يَتسَلَّلُ بَرْدٌ إِلى سَاكِنِيهِ، وَكَأَنَّهُمْ يُردِّدونَ قَولَ الشَّاعِرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ (أَبي نُوَّاسٍ):

ودَاوِني بِالتي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ.

وتَعَلَّمْتُ في مَدْرَسَتي أَنَّ السُّحُبَ العَظِيمَةَ التي نَراهَا عادَةً في فَصْلِ الشِّتاءِ، عِبارَةً عَنْ ماءٍ مُتَجَمِّعٍ في طَبَقَاتِ الجَوِّ العُلْيَا، تَنْقُلُهُ الرِّياحُ إلى حَيْثُ يَأْمُرُها اللهُ لِتَسْقُطَ مَاءً يَبْقَى عَلَى حالِهِ، أَوْ يَتَحَوَّلَ بَرَداً، أَو ثَلْجاً.

وَعَلِمْتُ أَنَّ الهَواءَ الَّذي يَدْخُلُ في رِئَتيَّ يَحْوِي هُوَ أَيْضاً كَمِّيَّةً كَبِيرَةً مِنَ المَاءِ، وأَنَّ جِسْمِيَ الذي أَعِيشُ فِيهِ كَانَ في الأَصْلِ ماءً وَتُراباً، ذَهَبَ التُّرابُ بِأَصْلِهِ وَشَكْلِهِ، وبَقِيَ الماءُ المُتَغَلْغِلُ في تَفَاصِيلِ الجَسَدِ مِنْ

لَحْمٍ وَعَظْمٍ وَدَمٍ، فَلا تُوجَدُ خَلِيَّةٌ حَيَّةٌ بِغَيرِ مَاءٍ. وكَانَ العَرَبُ قَدِيماً يَقولُونَ لِمَنْ مَاتَ: «ذَهَبَ مَاؤُهُ»، وهَذَا يَعْنِي أَنَّ الماءَ سِرُّ الحَيَاةِ.

وعَلِمْتُ أَنَّ المَاءَ هو الحَيَاةُ نَفْسُها، حَتَّى الدِّماءَ التي تَسْرِي فِي أَنْحاءِ الجِسْمِ إِذا جَفَّتْ وَذَهبَ مَاؤُهَا لا يَبْقَى غَيرُ ذَرَّاتٍ حَمْراءَ باهِتَةِ اللَّونِ، وَكُنْتُ أُلاحِظُ ذَلِكَ إِذَا جَرَحْتُ نَفْسِي أَثْناءَ لَعِبِي مَعَ أَقْراني الصِّغَارِ، وَمِثْلُ هَذِهِ عَصائِرُ الفَاكِهَةِ، لَوْ تُرِكَتْ فِي كَأْسٍ عَصِيراً حَتَّى جَفَّ تَماماً لَمَا بَقِيَ غَيرُ بَقايا مُلَوَّنَةٍ فِي قَعْرِ الكَأْسِ.

لَمْ أَكُنْ لأُصَدِّقَ أَنَّ مِيَاهَ البَحْرِ التي أَرَاهَا وَاحِدَةً مُتَّصِلَةً قَدْ تَكُونُ فِي بَعْضِ الأَمَاكِنِ مِنَ البِحَارِ أَوِ المُحِيطاتِ مِياهاً مُتَعَدِّدَةً، وَبِحاراً مُنْفَصِلَةً؛ يَحُدُّها جِدارٌ مائِيٌّ وَهْمِيٌّ حَقِيقِيٌّ، لَا يُمْكِنُ لِلْعَينِ أَنْ تَراهُ بِوُضوحٍ، فَالمِياهُ مُتلاصِقَةٌ مُتَلاحِمَةٌ، لِهَذا أَسْمَاكٌ

وَلِذاكَ أَسمَاكٌ؛ لِلأَوَّلِ حَرارَةٌ ولِلثَّاني حَرارَةٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَمُوَاصَفاتُ كُلِّ واحِدٍ مِنْهَا تَخْتَلِفُ عَنِ الآخَرِ.

لَمْ أُصَدِّقْ ـ كَمَا قُلْتُ ـ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ، لَكِنَّها حَقِيقَةٌ أَقْرَبُ إِلى حُلُمٍ.

كَمَا عَلِمْتُ أَنَّ الكُرَةَ الأَرْضِيَّةَ هِيَ فِي الوَاقِعِ كُرَةٌ مَائِيَّةٌ، فَالمَاءُ يُشَكِّلُ أَكْثَرَ مِنْ ثُلُثَي الأَرْضِ، وَاليَابِسَةُ لَيْسَتْ سِوَى جَزِيرَةٌ تُشَكِّلُ الثُّلُثَ فَقَط أَوْ أَقَلَّ بِقَلِيلٍ.

وأَدْرَكْتُ أَنَّ المَاءَ هُوَ الَّذي يَحْمِلُ الأَرْضَ، وَلَيسَتِ الأَرْضُ هِيَ التِي تَحْمِلُ المَاءَ. وَعَرفْتُ أَنَّ عُمْقَ الأَرْضِ يَسِيلُ، وأَنَّ اليَابِسَةَ تَسْبَحُ عَلَى بَحْرٍ مُلْتَهِبٍ، يَخْرُجُ إِلَينا مِنْ حِينٍ لآخَرَ مِنْ فُوَّهَاتِ بَراكِينَ نَرَاهَا فِي العَالمِ.

وَرَأَيْتُ أَيْضاً أَنَّ البَحْرَ فِي حَقِيقَتِهِ ثَائِرٌ، لا كَمَا يَبْدُو هَادِئاً وَدِيعاً.

ومَا زِلْتُ أَحْلُمُ بِأَنَّ لِلبَحْرِ آخِرٌ.

رَكِبْتُ سُفُناً، وَقَطَعْتُ بِحَاراً؛ مِنْ شُطْآنَ إلى شُطْآنَ، لَكِنِّي مَا زِلْتُ أَحْلُم بِأَنَّ لِلبَحْرِ نِهَايَةً، لأَنَّ كُلَّ شَيءٍ فِي الوُجودِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ نِهَايَةٍ.

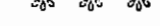

خُرْطومُ المَاءِ

عُدْنا إلى الشَّالِيه بَعْدَ أَنْ أَنْهَكَنَا التَّعَبُ. رَأَيْتُ في حَدِيقَةِ الشَّالِيه المُجَاوِرِ صَبيّاً مَاليزيّاً في مِثْلِ سِنِّي تَقْرِيباً، كانَ يَسْقِي وَرُودَ الحَدِيقَةِ بِإِنَاءٍ صَغِيرٍ في يَدِهِ، اقْتَرَبْتُ مِنْهُ، وبَعْدَ السَّلامِ دَارَ بَينَنا حِوَارٌ بِاللُّغَةِ الإِنْكلِيزيَّةِ. سَأَلْتُهُ:

ـ مَاذا تَفْعَلُ؟

أَجَابَني:

ـ أَسْقِي الوُرودَ كَمَا تَرَى.

قُلْتُ لَهُ:

ـ لا أَقْصدُ ذَلِكَ.

فَقَالَ:

ـ مَاذا تَقْصدُ إِذاً؟

قُلْتُ عَلَى الفَوْرِ:

ـ لِمَاذا تَسْتَخْدِمُ الإناءَ، والسِّقايَةُ بِالخُرْطومِ أَسْهَلُ وأَيْسَرُ وأَسْرَعُ؟

قَالَ:

ـ خُرْطومُ المَاءِ فِيهِ إِسْرَافٌ، لا يُمْكِنُني التَّحَكُّمُ فِيهِ، أَمَّا الإِناءُ فَأَفْضَلُ، أَصُبُّ بِواسِطَةِ الإِناءِ كَمِيَّةً قَلِيلَةً كافِيَةً مِنَ المَاءِ، تَصِلُ إِلى جُذورِ النَّبَاتِ، فَلا يَضِيعُ المَاءُ هَباءً مَنْثوراً، وَلا أُسْرِفُ ولا يَذْهَبُ الماءُ سُدًى.

قُلْتُ بِصَوْتٍ هَادِئٍ:

ـ صَحِيحٌ مَا تَقولُ، لَكِنَّ هَذا يَتَطَلَّبُ جُهْداً مُضْنِياً، وَوَقْتاً كَثِيراً، والماءُ وَفِيرٌ.

أَجَابَني:

ـ الوَقْتُ لا يَضِيعُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الأَشْيَاءِ المُهِمَّةِ، وَخَاصَّةً المَاء. أَلا تَسْمَعُ بِأَزْمَةِ المِياهِ التي يُعانِيها كَثِيرٌ

مِنَ النَّاسِ فِي العَالمِ، والإِحْساسُ بِالآخَرينَ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ في الحَياةِ.

قُلْتُ:

ـ نَعَم! صَحِيحٌ.

كُنْتُ أَشْعُرُ بِالسُّرورِ؛ فَمِنَ الجَمِيلِ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذا التَّفْكِيرِ لدَى هَذا الصَّبيِّ الصَّغِيرِ، وَخَاصَّةً أَنَّهُ فِي مَالِيزيَا، وَالمَاءُ تُحِيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالأَمْطارُ تَتَساقَطُ فِي شُهُورٍ عَدِيدَةٍ في العَامِ، وَفِي مَناطِقَ كَثيرَةٍ عَلَى مَدارِ العَامِ، وَخَاصَّةً لدَى هَذا المُزَارِعِ الصَّغِيرِ.

بِالفِعْلِ! إِنَّهُ تَفْكيرٌ رَائِعٌ يُبَيِّنُ الإِيثَارَ الكَبيرَ، والمَدَى البَعيدَ فِي حُبِّ الوَطَنِ، وحُبِّ الحَياةِ، وَحُبِّ الآخَرِينَ.

قَالَ الصَّبيُّ بَعْدَ أَنْ لاحَظَ صَمْتِي وَشُرُودِي وَحِيرَتي وَاسْتِغْرابي:

ـ صَدِيقي العَزيز صَالِح، لا تَسْتَغْرِبْ! فَأَنَا مِثْلُ

كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ البِلادِ الوَاسِعَةِ الشَّاسِعَةِ، لا أَسْتَخْدِمُ خُرْطومَ المَاءِ بِلا سَبَبٍ، بَلْ فِي حَالاتٍ مَحْدُودَةٍ وَعِنْدَ الضَّرورَةِ القُصْوَى، كَيْلا يُؤدِّي اسْتِخْدامُهُ المُفْرِطُ وَغَيرُ المَدْروسِ إلى ضَياعِ المَاءِ، لأَنَّ المَاءَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ يَجِبُ المُحَافَظَةُ عَلَيها، وإِنْ كُنَّا عَلَى نَهْرٍ جارٍ.

تَعَجَّبْتُ مِنْهُ ومِنْ كَلامِهِ. تَسَاءَلْتُ كَيفَ عَرَفَ اسْمِي دُونَ أَنْ أُخْبِرَهُ.

سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:

ـ سَمِعْتُ أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَمَا وَصَلْتُمْ إِلَى الشَّالِيه، وَكانَتْ أُمُّكَ تُنادِيكَ بِصَوتٍ عَالٍ، فَحَفِظْتُ اسْمَك فَهُوَ، سَهْلٌ وجَمِيلٌ، وكانَ عِندِي صَديقٌ عَرَبيٌّ اسْمُهُ مِثْلُ اسْمِكَ، وَتمَنَّيْتُ أَنْ نَلْتَقِيَ مَعاً.

ثُمَّ أَخْبَرَني أَنَّ اسْمَهُ إِسْماعِيلُ، وأَنَّهُ يُسَاعِدُ أَبَاهُ فِي

عَمَلِهِ كُلَّما كَانَتْ لَدَيهِ عُطْلَةٌ مَدْرَسِيَّةٌ، وَتَمَنَّى أَنْ نَلْتَقيَ فِي يَومٍ آخَرَ لِيُعَرِّفَني إِلى أُسْرَتِهِ.

وَأَخْبَرَني أَنَّهُ أَكْبرُ إِخْوَتِهِ، وأَنَّ لَدَيهِ أُخْتاً أَصْغَرَ مِنْهُ بِسَنَتَينِ، وأَخاً صَغيراً لَمْ يَذْهَبْ إِلى المَدْرَسَةِ بَعْدُ.

دَعَوْتُ صَدِيقي المَاليزيَّ الجَدِيدَ إِسْمَاعِيلَ لِزِيارَتي في الشَّالِيه، لأُعَرِّفَهُ إِلَى أُسْرَتي الصَّغِيرَةِ، وَنَتَناوَلَ الطَّعَامَ مَعاً.

وقُلْتُ لَهُ أَنَّ أَبِي وأُمِّي لَنْ يُمَانِعا، لأَنَّهُما يُحِبَّانِ الضُّيوفَ، وخاصَّةً أَصْدِقائي. لَكِنَّهُ اعْتَذَرَ بِلَباقَةٍ قَائِلاً:

ـ لَدَيَّ عَمَلٌ الآنَ، رُبَّما فِي يَومٍ لاحِقٍ. يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ إِلى مَكَانٍ فِي نِهايَةِ الشَّارِعِ لأُسَاعِدَ أَبِي فِي صِيانَةِ حَدِيقَةٍ أُخْرَى هُناكَ.

اسْتَأْذَنْتُ مِنْ صَدِيقِي المَاليزيِّ وَتَرَكْتُهُ يُنْهِي عَمَلَهُ، ودَخَلْتُ الشَّالِيه صَاعِداً مُباشَرَةً إِلى الطَّابِقِ العُلْوِيِّ، حَيْثُ يُوجَدُ المَطْبَخُ، وَكانَتْ أُمِّي تُعِدُّ طَعامَ الغَداءِ.

فَهِيَ كَعادَتِها لَا تُحِبُّ وَجَباتِ المَطاعِمِ الجَاهِزَةَ، وتَقولُ دَائِماً:

ـ إِنَّ أَفْضَلَ الطَّعَامِ هُوَ الطَّعَامُ الذي يُطبَخُ فِي المَنْزِلِ.

هِيَ لا تُنْصِتُ إِلى أَبِي الذي يُرَدِّدُ أَمَامَها بِاسْتِمْرارٍ أَنَّ عَلَيها أَنْ تَسْتَرِيحَ، وَخَاصَّةً فِي أَيَّامِ العُطَلِ، وَيَطْلُبُ مِنْها أَلّا تَطْبُخَ خِلالَ السَّفَرِ، لِكَي تَسْتَمْتِعَ بِالرِّحْلَةِ وَلا تُرْهِقَ نَفْسَها.

لَكِنَّ أُمِّي تُصِرُّ عَلَى ذَلِكَ، وَتتَمَسَّكُ بِرَأْيِها هَذا عَلَى الدَّوَامِ، وَلا تَتَنازَلُ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ عَنْ مَطْبَخِها وَطَبْخِها مَهْما كانَتِ الظُّروفُ، إِلّا فِي الحَالاتِ الاسْتِثْنائِيَّةِ، فَهِيَ تُحِبُّ الطَّبْخَ مُنْذُ طُفُولَتِها، ونَادِراً مَا تَرتَادُ المَطاعِمَ، وتُرَدِّدُ دائِماً أَنَّ الطَّبْخَ مُتْعَةُ حَياتِها.

ولا يَظُنَّنَ أَحَدٌ أَنَّ أُمِّي تَعْمَلُ فَقَط بِالمَنْزِلِ فِي الطَّهيِ والتَّنْظِيفِ، وأَنَّ أَبي لا يُساعِدُها، بَلْ عَلَى

العَكْسِ تَماماً. فَنَحْنُ جَمِيعاً نَقُومُ بِمُساعَدَتِها، كَما أَنَّها طَبِيبَةُ أَطْفالٍ، وَتُحِبُّ أَيْضاً عَمَلَها.

ولِكَونِها طَبِيبَةٌ فَهِيَ تُحَذِّرُنا دَائِماً مِنَ الأَطْعِمَةِ المُعَلَّبَةِ وَالجَاهِزَةِ، أَوِ التي تُحَضَّرُ فِي المَطاعِمِ بِدُونِ رَقابَةٍ، وخاصَّةً الأَطْعِمَةَ السَّرِيعَةَ المُشْبَعَةَ بِالدُّهُونِ وَالزُّيُوتِ، وتَقُولُ أَنَّها لَيْسَتْ مُفِيدَةً لِلجِسْمِ مِثْلَ الطَّعامِ المُنَظَّفِ بِعِنايَةٍ والمَطْهِيِّ بِجودَةٍ عالِيَةٍ والمُعَدِّ «بِحُبٍّ» فِي المَنازِلِ.

أَلْقَيْتُ نَظْرَةً عَلَى أُمِّي بِشَكْلٍ خاطِفٍ، كانَتْ مُنْهَمِكَةً بِتَحْضِيرِ شَيءٍ ما. لَمْ أَهْتَمَّ بِمَعْرِفَةِ نَوْعِ الطَّعامِ الذي تُحَضِّرُهُ لِلغَداءِ وَلا السُّؤالِ عَنْهُ، فَكُلُّ مَا تَطْبُخُهُ أُمِّي لَذِيذٌ وَشَهِيٌّ، وكانَتْ قَدِ اشْتَرَتْ بَعْضَ الحَاجِيَّاتِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ وَنَحْنُ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِنا.

أَلْقَيتُ عَلَيها التَّحِيَّةَ والسَّلامَ، ثمَّ قُلْتُ لَها:

ـ إِنِّي سَأَخْرُجُ قَلِيلاً إِلى الشُّرْفَةِ لِتَأَمُّلِ الطَّبِيعَةِ الجَمِيلَةِ.

وتَوَجَّهْتُ مُبَاشَرَةً إِلى الشُّرْفَةِ دُونَ أَنْ انْتَظِرَ رَدّاً مِنْها. رُحْتُ أَلْعَبُ وأَقْفزُ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ مُتَأَمِّلاً المَشْهَدَ الجَمِيلَ المُمْتَدَّ، وكُنْتُ عِنْدَمَا أَنْظُرُ تِجاهَ المَطْبَخِ لا أَرَى غَيرَ انْعِكَاسِ الضَّوءِ عَلَى زُجَاجِ بَابِ الشُّرْفَةِ.

كانَتِ الشَّمْسُ لَطِيفَةً جِدّاً، ذَكَّرَتْني بِمَوقِفٍ حَدَثَ مَعِي قَبْلَ سَنَتَينِ تَقْرِيباً، لَنْ أَنْسَاهُ فِي حَياتي.

تَذَكَّرتُ وأَنا واقِفٌ عَلَى الشُّرْفَةِ يَومَ كُنْتُ أَسِيرُ عَلَى الشَّاطِئِ في رِحْلَةٍ مَدْرَسِيَّةٍ، مَشيتُ مَعَ الأَصْدِقاءِ فَتْرَةً، ثمَّ قُلْتُ بَيني وَبينَ نَفْسِي:

ـ رَمْلُ الشَّاطِئِ حَارٌّ جِدّاً، أَشْعُرُ بِحَرَارَتِهِ الشَّدِيدَةِ رَغْمَ حِذَائِيَ السَّمِيكِ، أَشِعَّةُ الشَّمْسِ مُحْرِقَةٌ، ورَغْمَ أَنِّي أَحْمِلُ مِظَلَّتِي الصَّغِيرَةَ الْمُلَوَّنَةَ، فَإِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ

تَنَاوُلَ الْآيس كريم اللَّذيذِ. ذَابَ قَبْلَ انْتِهَائِي مِنْهُ وبَلَّلَ ثِيابِي، أمَّا الْقَمَرُ فَهُوَ أَلْطَفُ مِنَ الشَّمْسِ، لأَنَّهُ لَا يُزْعِجُنِي.

وعِنْدَما عَدْتُ إِلى البَيْتِ أَسْرَعْتُ نَحْوَ أُمِّي وَقُلْتُ لَهَا:

ـ أُمِّي، مَا هُو الأَكْبَرُ، وَمَا هُو الأَنْفَعُ: الشَّمْسُ أَمِ الْقَمَرُ؟

تَبَسَّمَتْ وقَالَتْ:

ـ الشَّمْسُ أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْقَمَرِ، ولِكُلٍّ مِنْهُمَا فَوائِدُهُ وَمَنَافِعُهُ، ولِلشَّمْسِ فَضِيلَةٌ عَلى الْقَمَرِ؛ فَهِيَ التي تَمْنَحُ القَمَرَ نُورَهُ المُسْتَمدَّ مِنَ الشَّمْسِ.

اسْتَغْرَبْتُ وقُلْتُ ضَاحِكاً:

ـ هَلْ تَقْصُدِينَ أَنَّ الشَّمْسَ مَحَطَّةُ كَهْرُباءٍ، بَيْنَهَا وَبَينَ الْقَمَرِ أَسْلَاكٌ كَهْرُبَائِيَّةٌ؟!

قَالَتْ أُمِّي وَعَلَى وَجْهِهَا تَعْلُو عَلامَاتُ الاسْتِغْرَابِ:

ـ بِالتَّأْكِيدِ لَيْسَ كَمَا تَقُولُ يَا صَالِحُ. فَالشَّمْسُ بَعِيدَةٌ جِدّاً عَنِ الْقَمَرِ، لَكِنَّ الْقَمَرَ مِثْلُ مِرْآةٍ عَاكِسَةٍ، يَسْتَقْبِلُ شُعاعَ الشَّمْسِ، ثُمَّ يُرْسِلُهُ مِنْ جَديدٍ إِلى الْأَرْضِ، لَكِنْ دُونَ حَرَارَةٍ.

قُلْتُ مُحْتَجّاً:

ـ لَكِنَّ الشَّمْسَ لا تَكُونُ فِي اللَّيْلِ، أَمَّا القَمَرُ يَأْتِي فِي الظَّلامِ.

وَضَعَتْ أُمِّي يَدَهَا عَلَى رَأْسِي وَقَالَتْ:

ـ هَذا صَحِيحٌ يا حَبِيبي! الشَّمْسُ تَبْقَى فِي مَكَانِهَا، تُرْسِلُ ضَوْءَهَا. نَحْنُ لا نَراهَا لِأَنَّها تَكُونُ فِي الجِهَةِ الْأُخْرَى مِنَ الْأَرْضِ. وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَرْضَ تَدُورُ والشَّمْسُ ثَابِتَةٌ، الْقَمَرُ يَدُورُ وَيَتَحَرَّكُ مِثْلُ الْأَرْضِ، نَرَاهُ يَكْبرُ وَيَصْغُرُ، وَأَحْيَاناً يَخْتَفِي.

إنَّ الشَّمْسَ والْقَمَرَ نِعْمَتَانِ عَظِيمَتَانِ، لَوْلَاهُمَا لَمَا عَرَفْنَا اللَّيْلَ وَلا النَّهارَ، وَلَا عَرَفْنَا حِسابَ السِّنينَ والأعوامِ. كَمَا أَنَّ الْأَقْمَارَ وَالنُّجُومَ كانَتَا دليلَ الْمُسَافِرِينَ فِي الصَّحْرَاءِ قَبْلَ مَعْرِفَةِ الْبُوصْلَةِ وَالطُّرُقَاتِ الْحَدِيثَةِ.

بَعدَ ذَلِكَ سَادَتْ فَتْرَةُ صَمْتٍ قَصِيرَةٍ، ثمَّ دَارَ هَذا الحِوَارُ:

ـ أُمِّي...

ـ نَعَمْ يا حَبيبي.

ـ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكِ شَيْئاً وَبِصَرَاحَةٍ.

ـ تَفَضَّل.

ـ أَنَا أُحِبُّ الشَّمْسَ أَكْثَرَ مِنَ الْقَمَرِ، لكِنَّ الشَّمْسَ لَا تُحِبُّنِي، أُرِيدُ أنْ تكونَ صَدِيقَتِي؛ لكِنَّهَا لَا تُحِبُّني.

ضَحِكَتْ أُمِّي وقَالَتْ مُتَعَجِّبَةً:

ـ الشَّمْسُ لَا تُحِبُّكَ؟! كَيفَ؟ مَنْ قَالَ كَذَلِكَ يَا

صَالِح؟ الشَّمْسُ لَا تَكْرَهُ أَحداً، هِيَ تَقُومُ بِوَاجِبِها بِكُلِّ إِخْلَاصٍ. إِنَّهَا تَحْرِقُ نَفْسَهَا، تُبَدِّدُ طَاقَتَهَا لِتَنْشُرَ الدِّفْءَ وَالنُّورَ عَلَى الدُّنْيَا.

قُلْتُ لها:

ـ كُلَّمَا خَرَجْتُ إِلَى الْحَدِيقَةِ لِأَلْعَبَ، أَشْعُرُ أَنَّ الشَّمْسَ تُؤْذِينِي بِحَرَارَتِهَا، وَخُصُوصاً فِي فَصْلِ الصَّيْفِ عِنْدَمَا أَخْرُجُ لِلتَّنَزُّهِ فَأَضطرُّ لِلاحْتِمَاءِ مِنْهَا بِالْمِظَلَّةِ أَوْ خَلْفَ سِتَارٍ أَوْ تَحْتَ الْأَشْجَارِ.

أَجَابَتْ:

ـ أَنْتَ تُثِير عَجَبِي، أَتُرِيدُ مِنَ الشَّمْسِ أَنْ تَكُفَّ عَنْ عَمَلِهَا؟! هِي تَسِيرُ بِأَمْرِ اللهِ، تُنَفِّذُ أَوامِرَهُ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْصِيَهِ أَوْ تَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ. كَيْفَ يُمْكِنُ لِلشَّمْسِ أَنْ تَكُونَ عَدُوَّتَكَ وَهِيَ تَمْنَحُكَ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ؟! كُلُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا. هَلْ تَتَخَيَّلُ الدُّنْيَا مِنْ دُونِ

الشَّمْسِ؟! سَوْفَ تَتَحوَّلُ الْأَرْضُ إِلَى كُرَةٍ جَلِيدِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، لَا تَبْقَى فِيها حياةٌ.

وَبَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ كَلامَ أُمِّي وَعَرَفْتُ بِمَنافِعِ الشَّمْسِ وَفَوائِدِها، قُلْتُ بِصَوتٍ مُرْتَفِعٍ:

ـ أُمِّي، أَنَا أُحِبُّ الشَّمْسَ، وأُرِيدُ أَنْ تَكُونَ صَدِيقَتِي، لَكِنَّهَا تُؤْذِينِي، وَالْقَمَرُ لَا يؤْذِينِي!

فَقَالَتْ أُمِّيُ بِصَوتِها العَذْبِ الجَمِيلِ:

ـ وَهَلْ تَعْنِي الصَّدَاقَةُ أَنْ يَتَخَلَّى الْإِنْسَانُ عَنْ وَاجِبَاتِهِ؟ إِنَّ الشَّمْسَ تَقُومُ بِدَوْرِهَا، وهِيَ تُحِبُّكَ، ولَوْ لَمْ تَكُنْ تُحِبُّكَ لَفَعَلَتْ مِثْلَمَا تُرِيدُ وَخَفَّفَتْ مِنْ ضَوْئِهَا وَوَهْجِهَا، سَوْفَ تَرْتَاحُ هِيَ وَتَمُوتُ الْكَائِنَاتُ الْحَيَّةُ، ثُمَّ تَنْعَدِمُ الْحَيَاةُ فَوْقَ الْأَرْضِ. وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا، فَالشَّمْسُ تَعْمَلُ مُنْذُ مَلايينِ السِّنِينِ، لَمْ تَتَوَقَّفْ عَنِ الْعَمَلِ لَحْظَةً وَاحِدَةً.

سَأَلْتُ بِدَهْشَةٍ:

ـ تَعْمَلُ مُنْذُ مَلايِينِ السِّنينِ! وَكُلُّ هَذَا سَيَحْدُثُ؟!

أَجَابَتْ:

ـ نَعَم، ورُبَّمَا أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. أَرَأَيْتَ كَيفَ أَنَّ الشَّمْسَ تُحِبُّكَ عِنْدَمَا تُرْسِلُ أَشِعَّتَهَا الْقَوِيَّةَ؟!

فَقُلْتُ:

ـ نَعَم! كَلَامُكَ حَقٌّ.

ثُمَّ قَمْتُ مُسْرِعاً، فَنادَتْني أُمِّي:

ـ إِلى أَيْنَ يا صالِح؟

قُلْتُ بِلَهْفَةٍ:

ـ إِلَى الشَّاطِئِ مِنْ جَديدٍ، لِأَلْعَبَ مَعَ صَدِيقَتِي الشَّمْسِ الَّتِي تُحِبُّنِي.

ضَحِكَتْ أُمِّي وَقَالَتْ:

ـ جَمِيلٌ جِدّاً، لَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تُطِيلَ الْوُقوفَ في الشَّمْسِ حَتَّى لَا تَشْغَلَها عَنْ عَمَلِهَا.

❁ ❁ ❁

السُّقُوطُ مِنْ فَوْقِ الشُّرْفَةِ

وفِيْما كانَ ذَلِكَ المَوقِفُ الجَميلُ مَعَ الشَّمْسِ يَعْبُرُ فِي شَريطِ ذِكْرَياتي؛ تَسَلَّقْتُ جِدارَ الشُّرْفَةِ العَالي ظَنّاً مِنِّي أَنِّي سَأَكُونُ أَكْثَرَ قُرْباً مِنَ الشَّمْسِ. رَفَعْتُ رَأْسِي عَالِياً لاسْتِقْبالِ ضَوءِ الشَّمْسِ. فَتَحْتُ يَدي مِثْلَ طَائِرٍ مُشْتاقٍ لِلحُرِّيَّةِ لِيَغْمرَ الشُّعَاعُ جَسَدِي كُلَّهُ.

أَغْمَضْتُ عَيْنيَّ مُتَنَشِّقاً بِعُمْقٍ حَتَّى امْتَلأَ صَدْرِي عَنْ آخِرِهِ، وَحَبَسْتُ الهَواءَ النَّقِيَّ حَتَّى كِدْتُ أَنْفَجِرُ. رَفَعْتُ جَسَدي أَكْثَرَ فِي حَمَاسَةٍ.

فَجْأَةً، ودُونَ سَابِقِ إِنْذارٍ، وَجَدْتُ نَفْسِي أُحلِّقُ فِي الهَواءِ دُونَ أَيِّ حَواجِزَ. فَأَدْرَكْتُ أَنِّي تَزَحْلَقْتُ وَسَقَطْتُ مِنَ الشُّرْفَةِ.

عِنْدَها اسْتَيْقَظْتُ مِنْ أَحْلامِ اليَقَظَةِ، وَأَطْلَقْتُ صَيْحَةً هائِلَةً مُدَوِّيَةً، ظَنَنْتُ أَنَّ رُوحِيَ خَرَجَتْ مَعَها.

لَمْ تَسْمَعْ أُمِّي صَيْحَتي؛ كانَ بَابُ الشُّرْفَةِ الزُّجَاجيِّ مُغْلَقاً كَما أَنَّ أُمِّي كَانَتْ مَشْغُولَةً بِالطَّبْخِ، ولَمْ تَسْمَعْ أَيْضاً صَدَى ارْتِطامِي بِالأَرْضِ. ومِنْ لُطْفِ رَبِّي بِي أَنِّي وَقَعْتُ عَلَى تَلَّةٍ مِنَ العُشْبِ الأَخْضَرِ الرَّطبِ.

لَمْ تَكُنِ الشُّرْفَةُ مُرْتَفِعَةً كَثِيراً، كَمَا أَنَّ الأَرْضَ التي سَقَطْتُ عَلَيها كَانَتْ تُشْبِهُ تَلَّةً صَغِيرةً، وَأَحْمَدُ اللهَ لأَنِّي تَصَرَّفْتُ بِشَكْلٍ سَرِيعٍ وَذَكِيٍّ وَلَمْ أَسْقُطْ عَلَى رَأْسِي مُباشَرَةً، لأَنَّ السُّقوطَ عَلَى الرَّأْسِ مِنْ مَكانٍ مُرْتَفِعٍ يَعْني النِّهايَةَ الحَتْمِيَّةَ.

قُمْتُ بِبَسْطِ يَدَيَّ بِشَكْلٍ سَرِيعٍ جِدّاً، واسْتَخْدَمْتُ كَفِّيَ لِتَخْفِيفِ أَثَرِ الصَّدْمَةِ، غَيرَ أَنِّي شَعَرْتُ بِدُوارٍ بَسِيطٍ، لَمْ يَكُنْ مُزْعِجاً وَمُؤْذِياً، لَكِنِّي نَهَضْتُ وَاقِفاً ثمَّ مَشَيْتُ قَلِيلاً.

لَكنِّي عُدْتُ وَاسْتَلْقَيْتُ فَوْقَ العُشْبِ الأَخْضَرِ الجَمِيلِ، وَكَأَنَّ شَيئاً لَمْ يَكُنْ.

نَظَرْتُ إِلَى الأَعْلَى فَلَمَحْتُ أُمِّي تَتَفَقَّدُني عَلَى الشُّرْفَةِ، ولمَّا لَمْ تَجِدْنِي نَظَرَتْ مِنَ الأَعْلَى بِشَكْلٍ تِلْقائِيٍّ، وأَعْتَقِدُ أَنَّها لَمْ تَكُنْ تَتَوَقَّعُ أَنِّي وَقَعْتُ مِنْ فَوْقٍ.

شَاهَدَتْني مُسْتَلْقِياً فَوْقَ العُشْبِ الأَخْضَرِ، فَأُصِيبَتْ بِهَلَعٍ شَدِيدٍ، وأَطْلَقَتْ صَيْحَةً مُدَوِّيَةً وأَسْرَعَتْ تَقْفِزُ عَلَى السَّلالِمِ حَتَّى وَصَلْتُ بِسُرْعَةٍ مُتَناهِيَةٍ. ضَمَّتْني أُمِّي إِلَى صَدْرِهَا بِلَهْفَةٍ ورَاحَتْ تَتَفَحَّصُ رَأْسِي وجَسَدِي.

وكَما قُلْتُ سَابِقاً فَإِنَّ أُمِّي طَبِيبَةٌ، وكانَتْ تَخْشَى أَنْ يَكونَ هُنالِكَ كُسورٌ أَوْ رُضوضٌ في جَسَدِي.

وبَعْدَ أنِ اطْمَأَنَّتْ وَذَهَبَ خَوفُها، أَلْقَتْ بِجَسَدِها إِلى جَانِبِي عَلَى العُشْبِ الجَمِيلِ الأَخْضَرِ، وَبَسَطَتْ

يَدَيْها وَتَنَهَّدَتْ تَنْهِيدَةً عَمِيقَةً جِدّاً، واسْتَغْرَقْنا قَلِيلاً نَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ الصَّافِيَةَ.

كانَتْ لَحَظاتٌ رَائِعاتٌ، اسْتَمْتَعْنا فِيها بِرائِحَةِ العُشْبِ وَلَوْنِ السَّماءِ الزَّرْقاءِ. وَيقُولُونَ إِنَّ هَذا اللَّونَ يُهَدِّئُ الأَعْصَابَ تمَاماً، وَيَمْنَحُ الإِنْسَانَ طَاقَةً إِيْجابِيَّةً هَائِلَةً. لَكِنَّهَا لِلأَسَفِ لمْ تَدُمْ سِوَى هُنَيهاتٍ قَصِيراتٍ جِدّاً.

وكَما بَدَا لِي، فَإِنَّ صَيحَاتِ أُمِّي وَقفَزاتِها السَّريعَةَ عَلَى السَّلالِمِ اسْتَفَزَّتْ أَبي وأَخي الصَّغِيرَ مُباركاً؛ اللَّذَينِ كانا في غُرْفَتَيهِما، فَأَسْرَعا وَراءَهَا يَعْدُوانِ وَهما لا يَعْرِفانِ مَا حَدَثَ.

وَعِنْدَما اكْتَشَفا الوَقْعَةَ المَرِيرَةَ ذُهِلَ كِلاهما، لَكِنَّهُما عَادا وَاطْمَأَنَّا عَلَيَّ كَمَا اطْمَأَنَّتْ أُمِّي، ثُمَّ أَطْلَقا ضَحكاتِهِمَا مُدَوِيَّةً أَكْثَرَ مِنْ دَوِيِّ صَرْخَتي عِنْدَمَا سَقَطْتُ

مِنْ أَعْلَى الشُّرْفَةِ. واسْتَلْقَيَا إِلَى جَانِبِنا فَوْقَ العُشْبِ الطَّرِيِّ.

ونَسِينَا جَمِيعُنا مُوضوعَ الجُوعِ والطَّعَامِ كُلِيَّةً، وَقضَينَا الوَقْتَ فِي تَأَمُّلٍ وَصَمْتٍ مُطْبَقٍ. ولَمْ يَقْطَعِ انْسِجامَنَا وَانْدِمَاجَنا وتَمَاهِينَا مَعَ الطَّبِيعَةِ والسَّمَاءِ سِوَى صَيْحَاتِ أَبِي:

ـ الطَّعامُ يَحْتَرِقُ، الطَّعَامُ يَحْتَرِقُ.

عِنْدَهَا تَذَكَّرَتْ أُمِّي أَنَّهَا وَضَعَتِ الطَّنْجَرَةَ عَلَى النَّارِ قَبْلَ أَنْ أَسْقُطَ مِنَ الشُّرْفَةِ وَتَلْحَقَ بِي، نَاسِيَةً النَّارَ والطَّبْخَةَ وَالطَّعَامَ والدُّنْيا بِمَا فِيها.

يا سُبْحانَ اللهِ؛ كَمْ هُوَ رَقِيقٌ قَلْبُ الأُمِّ، أَكْثَرُ رِقَّةً مِنْ جَناحِ فَراشَةٍ!

إِذَا لَدَغَتْ طِفْلَها بَرْغوثَةٌ صَغِيرَةٌ حَنَّتْ عَلَيهِ وَبَكَتْ، وإِنْ سَقَطَتْ مِنْ إِحْدَى عَينِي وَلِيدِهَا دَمْعَةٌ غَصَّ فُؤادُها وَاحْتَرَقَ.

وَكانَ غَدَاؤَنا يَوْمَها في مَطْعَمٍ مَالِيزيٍّ مُجَاوِرٍ. مَكانٌ لَهُ ذِكْرَى خَاصَّةٌ جِدّاً، حَيْثُ شَهِدَ أَوَّلَ غَداءٍ لأَبي وأُمِّي بَعْدَ الزَّواجِ وسَفَرِهِما لِقَضَاءِ شَهْرِ العَسَلِ في ماليزيا.

لَقَدْ أَحْبَبْتُ المَكانَ كَثِيراً، كَمَا أَنِّي اسْتَسَغْتُ ذَلِكَ الطَّعامَ، كانَ يَحْتَوي عَلَى الكَثيرِ مِنَ البَهاراتِ وَالمُنَكِّهاتِ اللَّذِيذَةِ، وَأَنَا عادَةً لا أُحِبُّ كَثْرَةَ البَهاراتِ في الطَّعامِ، وخاصَّةً البَهاراتِ الحَرَّاقَةَ. لَكِنَّ الطَّعَامَ المَاليزيَّ كانَ عَجِيباً، مُمْتَزِجاً بِطَعْمٍ ورَائِحَةِ التَّوابِلِ الرَّائِعَةِ.

كانَتْ أُمِّي سَعِيدَةً جِدّاً بِاخْتِيارِ أَبي لِلْمَطْعَمِ، لَكِنَّها لَمْ تَكُنْ رَاضِيَةً تَماماً عَنْ ذَلِكَ، لأَنَّها كَانَتْ تُحِبُّ دَائِماً أَنْ تُطْعِمَنا مِنْ يَدَيها، وحَتَّى عِنْدَمَا نَكُونُ فِي إجَازَةٍ.

ومَرَّتِ الأَيَّامُ، كَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ أَيَّامِ العُمرِ. وزُرْنَا

الفُنْدُقَ الذي أَقامَ بِهِ أَبِي وأُمِّي سابِقاً، كَمَا زُرْنَا أَمَاكِنَ كَثيرَةً.

وَمرَّتِ العُطْلَةُ بِشَكْلٍ سَرِيعٍ جِدّاً، ولمْ يَحْدُثْ بَعْدَ ذَلِكَ أَيُّ شَيءٍ آخَرُ يُعَكِّرُ صَفْوَ أَيَّامِنَا.

كُنْتُ أَذْهَبُ يَوْمِيّاً مَعَ أُمِّي وأَبي وأَخِي إلى الشَّاطِئِ، وصُرْتُ حَذِراً جِدّاً مِنَ الوُقوعِ مِنْ أَيِّ مَكانٍ مُرْتَفِعٍ. وعِشْنا أُسْبوعاً جَمِيلاً أَنا وأُسْرَتي الجَمِيلَةُ الصَّغِيرَةُ، اسْتَكْشَفْنا أَمَاكِنَ غَرِيْبَةً.

زُرْنا الجِبالَ والتِّلالَ والسُّهولَ والغَابَاتِ، فَأَنَا أُحِبُّ الطَّبِيعَةَ الجَمِيلَةَ وأَهْواها أَكْثَرَ مِنَ الأَبْنِيَةِ والأَماكِنِ السِّياحِيَّةِ والتَّارِيخيَّةِ.

لَقَدْ تَرَكَتْ مَاليزيا في نَفْسِي ذِكْرَياتٍ جَميلَةً، خاصَّةً أَنَّ مَكانَ إِقامَتِنا كانَ يَسْبَحُ بَينَ الأَشْجارِ التي تُحِيطُ بِنا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

كَمَا أَنَّ مَنْظَرَ البَحْرِ مِنْ أَمَامِنا وَهُوَ يُصَافِحُ الشَّاطِئَ

جَميلٌ وَبديعٌ، حَيثُ يَلْتَقي مَعَ الجَبَلِ فِي سَهْلٍ ضَيِّقٍ صَغِيرٍ.

لَكِنْ، كَما أَنَّ لِكُلِّ شَيءٍ آخِراً، فَقَدْ حَانَ مَوعِدُ العَوْدَةِ.

وعِنْدَمَا عُدْنَا تَذَكَّرْتُ حَادِثَةَ صَدِيقِي خَالِدٍ، وأَرْغَمَتْني تِلْكَ الحَادِثَةُ عَلَى أَنْ أَكونَ شَدِيدَ الحَذَرِ بِأَيِّ عَمَلٍ أَقومُ بِهِ، وَخَاصَّةً عِنْدَما أَقومُ بِالتَّعْليقِ عَلَى أَمْرٍ مَا مِنْ خِلالِ تَويتَر أو الفِيسْبوك.

❁ ❁ ❁

المَشْهَدُ الأَخِيرُ

انْشَغَلْتُ كَثِيراً بِالدِّرَاسَةِ فِي الفَتْرَةِ التي تَلَتْ رِحْلَتِي إلى ماليزيا، فَالفَصْلُ الثَّاني هُوَ الأَخِيرُ، وَعَادَةً ما يَكونُ فَصْلاً سَرِيعاً مَلِيئاً بِالنَّشاط، مَعَ اقْتِرابِ نِهايَةِ العَامِ الدِّراسِيِّ وَكَثْرَةِ الأَعْبَاءِ وَالوَاجِباتِ والامْتِحاناتِ.

وهَذِهِ الفَترَةُ التي تَسْبِقُ نِهَايَةَ العَامِ وَموعِدَ الامْتِحاناتِ النِّهائِيَّةِ تَحتاجُ أَنْ أَقْضِيَ مُعْظَمَ وَقتِي فِي غُرْفَتي، وَالكُتُبُ مُكَدَّسَةٌ حَولِي.

وَدائِماً أَبْدُو مُنْهَمِكاً اسْتِعْداداً لِلامْتِحَانَاتِ النِّهائِيَّةِ.

وأَنَا فِي طَبيعَتي أَحْرُصُ عَلى ذَلِكَ، وَحَتَّى فِي بدْءِ العَامِ الدِّراسِيِّ؛ فَكِيفَ وَأَنا فِي نِهايَاتِهِ؟!

وفِي كُلِّ مَرَّةٍ كانَ يَدورُ بَيني وَبينَ أُمِّي حِواراتٌ مُتَشابِهَةٌ، فَهِيَ حَرِيصَةٌ جِدّاً عَلَى أَنْ أَكونَ مُثَقَّفاً وَمُتَعَلِّماً، لَيسَتِ الشَّهادَةُ هِيَ الأَساسُ عِنْدَها، فَأُمِّي لَيستْ حَرِيصَةً فَقَط عَلَى أَنْ تَكونَ دَرَجَاتي عَالِيةً. فالعِلْمُ ـ كَمَا تَقولُ ـ فِي الصُّدورِ ولَيسَ في السُّطورِ؛ والعِلْمُ فِي الأَسَاسِ لَيسَ فِي القِرطاسِ، بَلْ فِي العَقْلِ وَالقَلْبِ المُسْتَنِيرِ. وهَذِهِ مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ جِدّاً، لأَنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ يَحْرصُونَ عَلَى الدَّرَجاتِ وَالعَلامَاتِ، وَلا يَحْرصُونَ عَلَى مَدَى ثَباتِ المَعْلُومَاتِ. فَحِفْظُ المَعْلُوماتِ في الصُّدورِ أَهَمُّ بِكَثيرٍ مِنْ حِفْظِ الشَّهادَاتِ وَتعْلِيقِها عَلَى الجُدْرانِ.

وهَذا ما تَقولُهُ أُمِّي وتُرَدِّدُهُ دائِماً.

والعِلْمُ فِي الصِّغَرِ مِثْلُ النَّقْشِ عَلَى الحَجَرِ، والفَشَلُ كُلُّ الفَشَلِ فِي تَحَوُّلِ العِلْمِ إلى تَنافُسٍ مِنْ أَجْلِ الشَّهادَةِ، ومَنْ يَكونُ فِي المُقَدِّمَةِ.

فَمِنَ الخَطَأِ أَنْ يُصْبِحَ العِلْمُ مُجَرَّدَ سَعْيٍ لِمُنَافَسَةِ الآخَرينَ فِي الدَّرَجَاتِ، بَلْ مِنَ المُهِمِّ البَحْثُ عَنِ المُنافَسَةِ فِيما يُحَقِّقُ التَّمَيُّزَ فِي كُلِّ المَوادِّ.

أَمَّا الدَّرَجاتُ فَهِيَ آتِيَةٌ لا مَحالَةَ، وَحَتَّى وإِنْ لَمْ تَأْتِ كَمَا يَشْتَهِي البَعْضُ، فَلَيسَتِ الدَّرَجاتُ غَيرَ سُلَّمٍ لِلعُبورِ، وَلَيسَتْ هَدَفاً كَمَا هُوَ رَاسِخٌ فِي أَذْهانِ البَعْضِ. وَشَتَّانَ مَا بَينَ الوَسِيلَةِ وَالهَدَفِ.

وفِي مُعْظَمِ الأَوْقاتِ تَدْخُلُ أُمِّي غُرْفَتي وَأَنا غَارِقٌ في الدِّراسَةِ، وهِيَ تَحْمِلُ إِنَاءَ عَصِيرٍ وَكوباً فارِغاً، ويَدورُ بَيْنَنا حِوارٌ مُتَشابِهٌ إِلى حَدٍّ بَعِيدٍ:

ـ يا حَبِيبي، أَنْتَ تَتْعَبُ كَثِيراً! اللهُ يَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ.

ثُمَّ تَسْرُدُ لِي مَجْمُوعَةً مِنَ النَّصائِحِ المُكَرَّرَةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، وَتَقولُ بَعْدَها:

ـ والآنَ يا حَبيبي، هَيّا إِلى الدَّرْسِ.

وفي كُلِّ مَرَّةٍ أَهُزُّ رَأْسِي سَعِيداً بِحِرْصِ أُمِّي عَلَى دِراسَتي.

وبَعْدَ أَنِ انْتَهَتْ أَوَّلُ اخْتِباراتِ الفَصْلِ الأَخِيرِ في المَدْرَسَةِ، وبَدَأَتْ عُطْلَةٌ قَصِيرَةٌ تَسْبِقُ الجزْءَ الأَخِيرَ مِنَ الفَصْلِ قَبْلَ مَوْعِدِ الاخْتِباراتِ النِّهائِيَّةِ؛ أَخْبَرْتُ أُمِّي وأَبي أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْمَلَ فِي العُطْلَةِ لأَمْلأَ وَقْتَ الفَراغِ بِشَيءٍ نافِعٍ مُفِيدٍ إلى جانِبِ هِوايَتي الأَسَاسِيَّةِ، وَهِيَ المُطالَعَةُ، بَدَلاً مِنَ الجُلُوسِ فِي المَنْزِلِ وضَياعِ الوَقْتِ أَمامَ التِّلْفِزْيون أوِ اللَّعِبِ بِالأَجْهِزَةِ الإِلِكْتْرونِيَّةِ المُتَعَدِّدَةِ.

وكُنْتُ في الحَقِيقَةِ أُفَكِّرُ بِالعَمَلِ لأَجْمَعَ بَعْضَ المَالِ مِنْ أَجْلِ القِيامِ بِرِحْلَةٍ جَديدَةٍ إلى مَاليزيا بِرِفْقَةِ أَصْدِقاءِ الدِّراسَةِ.

وكانَتِ العُطْلَةُ حَوالي أُسْبوعَينِ، ولمْ يَكُنْ لَدَينا أَيُّ خطَطٍ لِلسَّفَرِ أو لأَيِّ نَشاطٍ آخَرَ. فَفَرِحَ أَبي بِهَذِهِ

الفِكْرَةِ، وَبعْدَ التَّشاوُرِ معَ أُمِّي وافَقا، وسَأَلاني عَنِ العَمَلِ الذي أُرِيدُ أَنْ أَعْمَلَ به. وَمَا هو نَوعُ العَمَلِ الذي يُناسِبُ شَابّاً صَغِيراً مِثْلِي أَنْهَى لِلتَّوِّ عامَهُ العَاشِرَ.

كُنْتُ أُرِيدُ الاعْتِمادَ عَلَى نَفْسِي، وَلا أُرِيدُ أَنْ يُساعِدَني أَحَدٌ في البَحْثِ عَنْ عَمَلٍ، قُلْتُ: ـ في صَباحِ أَمس شاهَدْتُ إِعْلاناً في المَكْتَبَةِ القَرِيبَةِ مِنْ بَيتِنا، فِي نِهايَةِ الشَّارِعِ، يَطْلُبُ عامِلاً.

سَأَلْتُ صاحِبَ المَكْتَبَةِ فَرَحَّبَ كَثِيراً بِأَنْ أَعْمَلَ عِنْدَهُ بِشَرْطِ مُوَافَقَةِ والِدَيَّ، وَنَبَّهَني إلى أَنَّ العَمَلَ فِي المَكْتَبَةِ أَمْرٌ مُتْعِبٌ، وأَنَّ عَلَيَّ الحُضُورَ في وَقْتٍ مُبَكِّرٍ، وأَنْ أَنْقُلَ الكُتُبَ وأُوَزِّعَ الصُّحُفَ، وَأُنَظِّفَ الأَرْضَ يَومِيّاً.

فَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُمْهِلَني حَتَّى اليوم، لأَنَّهُ آخِرُ يَومٍ لِي في الامْتِحانِ. وَعِنْدَما انْتَهَيتُ مِنَ الامْتِحانِ، وَكُنتُ فِي طَرِيقِ عَودَتي إلى البَيْتِ، مَرَرْتُ عَلَى المَكْتَبَةِ،

واتَّفَقْتُ معَ صَاحِبِها عَلَى أَنْ أَسْتَأْذِنَكُما، واتَّفَقْنا عَلَى أَنْ أَبْدَأَ العَمَلَ غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ بَعْدَ الحُصولِ عَلَى مُوافَقَتِكما.

قَالَ أَبي ضَاحِكاً:

ـ رائِعٌ! رائِعٌ يا صالِح، هَذا يَعْني أَنَّكَ رَتَّبْتَ كُلَّ الأُمُورِ بِمُفْرَدِكَ دُونَ الحَاجَةِ إِلَينا. وَقَبْلَ أَنْ تَسْتَأْذِنَنا، عَلَى أَيِّ حَالٍ لا بَأْسَ، عَلَى بَرَكة اللهِ.

وتابَعَ بَعْدَ أَنْ رَسَمَ عَلَى وَجْهِهِ عَلاماتِ الجِدِّيَّةِ:

ـ لَكِنْ لِماذا لَمْ تُخْبِرْنا قَبْلَ أَنْ تَتَّفِقَ مَعَه؟

فَأَجَبْتُهُ بِخَجَلٍ:

ـ آسِفٌ يَا أَبي. لَقَدْ خَشيتُ أَنْ يَتَّفِقَ معَ أَحَدٍ غَيري، وتضيعَ عَلَيَّ هَذِهِ الوَظِيفَةُ.

فَقَالَ أَبِي ضَاحِكاً:

ـ إِجابَةٌ مُقْنِعَةٌ. جَيِّدٌ، أَنْتَ تَفوزُ. لَكِنْ لَمْ تَقُلْ لَنا: هَلِ اتَّفَقْتُمْ عَلَى الرَّاتِبِ الذي سَتَحْصلُ عَلَيهِ؟

فَقُلْتُ له:

ـ أَخْبَرَني صاحِبُ المَكْتَبَةِ أَنَّهُ سَيكونُ عَمَلي في البِدايَةِ تَجْرِبَةً لِمُدَّةِ يَومٍ واحِدٍ، وبَعْدَها يُقَرِّرُ التَّفاصِيلَ.

قَالَ أَبي مُمازِحاً:

ـ آه! في الحَقِيقَةِ مَعَهُ حَقٌّ بِذَلِكَ. لِذا عَلَيكَ أَنْ تُقَدِّمَ أَفْضَلَ مَا لَدَيكَ.

كانَتْ سَعادَةُ أَبي كَبِيرةً.

الْتَفَتَ نَحْوَ أُمِّي وَقالَ:

ـ صَارَ ابْنُكِ شَابّاً يَا أُمَّ صَالِح، يُرِيدُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِهِ. جَيِّدٌ. عَلَى بَرَكاتِ اللهِ، غَداً إِذاً سَيَكونُ بَدْءُ سِجِلِّ حَياتِكَ العَمَلِيَّةِ. بِالتَّوفِيقِ يا صَلُّوح.

وَقَفْتُ فَخوراً بِنَفْسِي، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي وَقُلْتُ:

ـ بِمَا أَنِّي أَصْبَحْتُ مِنَ الشَّبابِ العَامِلِينَ، أَرْجُو أَنْ لا تُنادِيَني بَعْدَ اليومِ بِصَلُّوح. أَنَا مِنَ الآنَ فَصَاعِداً: صَالِح، صَالِح وبَس.

قَالَ أَبِي وأُمِّي بِصَوتٍ وَاحِدٍ:

ـ كَما تَشاءُ يا . . . «صَالح وَبس».

ثُمَّ أَطْلَقا ضَحكَةً طَويلَةً عَريضَةً.

وفي المَساءِ، وفِيمَا كُنتُ أُشاهِدُ التِّلْفِزْيونَ قَالَ لِي أَبي:

ـ هَيّا يا صَلُّوح، عَفْواً، هَيّا يا «صَالح»، هَيَّا إلى النَّوْمِ. عَلَيكَ أَنْ تَرْتاحَ لِتَكونَ نَشيْطاً فِي الصَّباحِ البَاكِرِ، كَيلا تَتَأَخَّرَ عَنِ العَمَلِ.

لَكِنِّي كُنْتُ أُتابِعُ فِيلْماً مُمْتِعاً، فَقُلْتُ لَهُ:

ـ عِنْدَما يَنْتَهِي الفِيلْمُ يا أَبي، إِنَّهُ فِيلْمٌ رائِعٌ وجَديدٌ، وهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ يُعْرَضُ عَلَى التِّلْفِزْيونِ.

فَذَهَبَ أَبي وأُمِّي إِلى النَّوم، فِيما كانَ أَخِي نَائِماً مُنْذُ فَتْرَةٍ طَويلَةٍ، وبَقيتُ سَهرانَاً حَتَّى انْتَهَى الفِيلمُ. ثمَّ مَضَى الوَقْتُ وأَنا أُقَلِّبُ مَحَطَّاتِ التِّلْفِزْيونِ، دُونَ أَنْ أَنْتَبِهَ إِلى أَنَّ اللَّيلَ قَدِ انْتَصَفَ.

وقَضَيتُ مُعْظَمَ اللَّيلِ بِالسَّهَرِ وأَدْرَكَني النُّعاسُ، فَنِمْتُ وأَنَا جالِسٌ عَلَى الأَريكَةِ في غُرْفَةِ الجُلوسِ.

وفي صَباحِ اليَومِ التَّالي فُوجِئَتْ أُمِّي بِأَنِّي لمْ أَنَمْ فِي سَرِيرِي.

حاوَلَتْ إِيقاظِي لَكِنَّها أَخْفَقَتْ، ولَمْ أَسْتَيْقِظْ بِسُهولَةٍ.

قُلْتُ لأُمِّي:

ـ اليَومَ لَيسَ عِنْدي مَدْرَسَةٌ. نَحْنُ في عُطْلَةٍ، دَعِيني أُكْمِلَ نَومِي.

قَالَتْ:

ـ أَنَسِيتَ يا صَالِحُ أَنَّ عَلَيكَ الذَّهابَ إِلى المَكْتَبَةِ؟

عَنْدَما سَمِعْتُ هَذِهِ الجُمْلَةَ قَفَزْتُ مِنْ مَكانِي مَذْعُوراً، وارْتَدَيْتُ مَلابِسِي بِأَقْصَى سُرْعَةٍ، ثمَّ خَرَجْتُ مِنَ البَيْتِ دُونَ أَنْ أُسَرِّحَ شَعْري وأَتَناولَ فُطورِي.

وعِنْدَما وَصَلْتُ المَكْتَبَةَ وَجَدْتُ صَاحِبَها يَقِفُ عِنْدَ بَابِها يُراقِبُ عامِلاً يَكْنِسُ الرَّصِيفَ.

اقْتَرَبْتُ مِنْهُ وأَلْقَيْتُ عَلَيهِ تَحِيَّةَ الصَّباحِ، وَحَاوَلْتُ دُخولَ المَكْتَبَةِ، لَكِنَّهُ ظَلَّ واقِفاً عِنْدَ البابِ مُوَجِّهاً أُصْبُعَهُ إلى زُجَاجِ واجِهَةِ المَكْتَبَةِ مُشيراً إلى إِعْلانٍ جَديدٍ: (مَطْلوبٌ عَامِلٌ نَشيطٌ).

لاحَظْتُ أَنَّهُ أَضَافَ كَلِمَةَ (نَشِيط) إلى الإعلانِ.

ثمَّ قالَ:

ـ مَنْ فاتَهُ اليَومُ الأَوَّلُ مِنَ العَمَلِ؛ فَإِنَّ العَمَلَ لا يَحْتاجُ إِلَيهِ، وَمنْ نامَ عَنْ عَمَلِهِ؛ فَإِنَّ هُناكَ شَخْصاً آخَرَ أَحَقُّ مِنْهُ بِالعَمَلِ.

وقَبْلَ أَنْ أُجِيبَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مُدافِعاً عَنْ نَفْسِي، تَابَعَ صَاحِبُ المَكْتَبَةِ كلامَهُ قَائِلاً:

ـ أَنا أُرِيدُ عَامِلاً نَشِيطاً ولا أُرِيدُ شَخْصاً كَسُولاً يَأْتي إِلى العَمَلِ مُتَأَخِّراً. حَتَّى أَنَّكَ لَمْ تُسَرِّحْ شَعْرَكَ.

اذْهَبْ يَا بُنيَّ وَفَكِّرْ بِمَا قُلْتُهُ لَكَ، واعْلَمْ أَنَّ العَمَلَ لَنْ يَنْتَظِرَكَ حَتَّى تَأْتِي عَلَى رَاحَتِك.

ثمَّ عُدْتُ إلى البَيْتِ حَزيناً وأنا أُفَكِّرُ بِمَاذا سَأُبَرِّرُ فَشَلِي في اليَومِ الأَوَّلِ، لَكِنَّ الأَمْرَ كانَ وَاضِحاً، ولَمْ أَحْتَجْ لأَيِّ تَبريرٍ، وَجَلَسْتُ أَتَناوَلُ فُطورِي وَكَأَنَّ شَيئاً لَمْ يَكُنْ.

وبَعْدَ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ القَاسِيَةِ أَدْرَكْتُ قِيمَةَ السَّاعاتِ، لَكنِّي في الواقِعِ لا أُحِبُّ السَّاعاتِ، الرَّخِيصَةَ مِنها والبَاهِظَةَ الثَّمَنِ، لَمْ أَنْسُجْ مَعَها فِي أَيِّ أَيّامِ حَياتي عِلاقَةَ تَناغُمٍ وَتَفاهُمٍ، حَتَّى أَنِّي لَمْ أَحْمِلْ في مِعْصَمِي سَاعَةً إِلّا اضْطِراراً؛ رَغْمَ أَنِّي كَبُرْتُ وأَصْبَحَ عُمري عَشرَةَ أَعْوامٍ كامِلاتٍ.

مُنْذُ طُفولَتي الأُولَى والسَّاعَةُ تَشَكِّلُ هاجِساً لي، فَهِيَ تُوقِظُني مِنْ أَحْلامِي الصَّغِيرةِ وَتَقْذِفُني في الشَّوارِعِ الضَّيِّقَةِ نَحْوَ المَدْرَسَةِ، التي كانَتْ عَقارِبُ سَاعاتِها

تَمْضي عَلَى اسْتِحْياءٍ، مِثْل السُّلْحُفَاةِ المُسِنَّةِ. لمْ تَكُنْ ساعَةُ المَدْرَسَةِ تَتَحَرَّكُ بِسُهُولَةٍ.

وَعِنْدَما كَبُرْتُ قَلِيلاً اعْتَقَدْتُ أَنِّي تَخَلَّصْتُ مِنْ هَواجِسِي وَجُنونِي، لَكِنْ ظَلَّتِ السّاعَةُ ذَلِكَ الوَحْشَ الذي يَنْقَضُّ عَلَى كُلِّ شَيءٍ جَمِيلٍ أُحِبُّهُ، وكُلِّ اللَّحَظاتِ الرَّائِعَةِ التي أَعِيشُها، فِيمَا كانَتْ تَسِيرُ بِبُطْءٍ فَظِيعٍ فِي كُلِّ أَمْرٍ أَوَدُّ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ.

واليَومَ، وَبعْدَ هَذا المَوْقِفِ المُزْعِجِ، وَدونَ سَابِقِ إنْذارٍ؛ قَرَّرْتُ أَنْ أَحْمِلَ سَاعَةً مِنَ السَّاعَاتِ الكَثِيرةِ التي أَمْلِكُها، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَضَعَ المُنَبِّهَ الكَبيرَ دائِماً قُرْبَ سَرِيرِي، فلا يَفوتُني مَوْعِدٌ بَعْدَ اليومِ.

وكُنْتُ سَابِقاً قَرَّرْتُ تَجاهُلَ كُلِّ السَّاعاتِ، وَأَنْ أَحْيا دُونَ زَمَنٍ؛ أَنامُ عِنْدَما أُرِيدُ، وأَصْحُو عِنْدَما أُحِبُّ، أَخْرُجُ إلى الشَّارِعِ وَقْتَما أَشَاءُ، آكُلُ وأَشْرَبُ وأَعِيشُ بِتِلْقائِيَّةٍ بالِغَةٍ.

بِصَراحَةٍ! أَنَا لا أُحِبُّ حَرَكاتِ عَقارِبِ السَّاعَةِ وَسَكَناتِها، كَأَنَّني رَهِينُها. أَسِيرٌ بَينَ دَقَّاتِها ورَنَّاتِها. أَدُورُ ـ مِثْلها ـ فِي حَلقَةٍ فَارِغَةٍ. أَعِيشُ بَينَ أَرْقَامِها وَعقَارِبِها، كَمَنْ يَحْيا فِي جُحْرِ العَقارِبِ والأَفاعِي. فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ أَحْيا بَيْنَ العَقارِبِ؟

مُجَرَّدُ التَّفْكِيرِ بِالسّاعَةِ وَدَقَّاتِها يُوَلِّدُ فِي سَرِيرَتي شَيئاً مِنَ الرُّعْبِ المُجَنَّحِ.

تَكْتَكاتُها وَرَنّاتُها مِثْلُ قَصْفِ الصَّوارِيخِ وأَزيزِ الرَّصَاصِ. حَتَّى أَجْمَلُ السّاعاتِ تَبْدو لِي دَمِيمَةً قَبِيحَةً.

وفي صَباحِ اليَومِ التَّالي، تَلَقَّيْتُ اتِّصالاً مِنْ صَدِيقي خالِدٍ، دَعانِي لِنَقومَ بِنُزْهَةٍ مَعَ بَعْضِ الأَصْدِقاءِ فِي المَدْرَسَةِ؛ حَمَد ومُحَمَّد وسَلام وعَبْد اللهِ، وهُمْ كُلُّهُمْ يَسْكُنونَ مَعَنا في الشَّارِعِ نَفْسِهِ.

فَرِحْتُ كَثيراً لأَنَّ خالِداً دَعَاني لِنَخْرُجَ مَعاً. الحَمْدُ للهِ، لَقَدْ عَادَتِ العَلاقَةُ بَيْنَنا إلى سَابِقِ عَهْدِها كَما كُنّا

دائِماً، والتي عَكَّرَتْها تِلْكَ التَّغْرِيدَةُ التي لَمْ تَكُنْ مُرِيحَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ، مَعَ أَنِّي مَا زِلْتُ أُنْكِرُ أَنِّي كُنْتُ أَقْصدُهُ بِها أو أَقْصدُ أَيَّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وحَتَّى لَو كُنْتُ أَقْصدُهُ؛ فَلَيسَ الأَمْرُ يَعني ذَمّاً أَوْ إِسَاءَةً مَقْصودَةً.

اسْتَأْذَنْتُ مِنْ أُمِّي وَكُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ أَبِي سَيَخْرُجُ مَعَنا في نُزْهَتِنا كَعادَتِهِ السَّابِقَةِ، لَكِنَّهُ هَذِهِ المَرَّة لَمْ يَتَطَوَّعْ لِمُرافَقَتِنا.

وَقَالَ لِي:

ـ لَقَدْ أَصْبَحْتَ كَبِيراً بِما فِيهِ الكِفايَة.

ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ البَيْتِ بَعْدَ أَنْ أَسْعَدَنِي أَبِي بِمَوْقِفِهِ الجَدِيدِ.

انْتَظَرْتُ الأَصْدِقاءَ، وَمَا هِيَ إِلّا لَحَظات حَتَّى وَصَلَ خَالِدٌ وَمَعَهُ الأَصْدِقاءُ وبادَرُوني بِالسَّلامِ:

ـ السَّلامُ عَلَيكُم.

قُلْتُ لَهُمْ:

ـ وعَلَيكُمُ السَّلامُ يا أَصْدِقائي الأَعِزَّاء، أَهْلاً بِكُمْ، أَرَاكُمْ سُعَداءَ بِالعُطْلَةِ.

قَالَ خَالِدٌ:

ـ الحَمْدُ للهِ! العُطْلَةُ دائِماً جَمِيلَةٌ، المُهِمُّ مَرَّتِ الامْتِحاناتُ عَلَى خَيرٍ.

سَأَلَ عَبْدُ اللهِ عَنْ والِدِي، وعِنْدَما أَخْبَرْتُهُ فَرِحَ الجَمِيعُ بِمَوْقِفِ أَبي الجَدِيدِ، لَكِنَّ عَبْدَ اللهِ ذَكَّرَنا بِالحَادِثَةِ السَّابِقَةِ يَوْمَ أَنْقَذَهُ أَبي.

ثمَّ قَالَ حَمَدٌ:

ـ انْتَهَينا الآنَ مِنَ الامْتِحاناتِ، ومِنْ وَجَعِ الرَّأْسِ، وَبَدَأَتِ العُطْلَةُ، صَحِيحٌ أَنَّها قَصِيرَةٌ، لَكِنْ عَلَينا أَنْ نَمْلأَها بِالمَرَحِ والسُّرورِ.

سَلام يُفَكِّرُ، ويُكَلِّمُهُ حَمَدٌ:

ـ نَعَمَ! ما أَحْلَى العُطلاتِ! أَلَيسَ كَذلِك يَا أَصْدِقاء؟

يُجِيبُهُ سَلامٌ بِالقَوْلِ:

ـ نَعَمَ! نَعَم، لَكِنَّ العُطْلَةَ لَيسَتْ لِلَّعِبِ فَقَط.

يَقُولُ عَبْدُ اللهِ مُسْتَنْكِراً:

ـ ماذَا تَقْصدُ؟ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَكونَ العُطْلَةُ دُرُوساً وَواجِباتٍ؟!

يَرُدُّ سَلامٌ:

ـ بِالنِّسْبَةِ لِي أُقَسِّمُ أَوقاتي مَا بَينَ التَّسْلِيَةِ والعِلْمِ والرَّحلاتِ، وزِيارَةِ الأَهْلِ وَالأَصْدِقاءِ، وَعَلَى ذِكْرِ الرَّحلاتِ، لَقَدْ أَعْجَبَتْني أَكْثَر شَيءٍ رِحْلَةُ صَالحٍ إلى مَاليزيا، وأَتَمَنَّى أَنْ أَقُومَ بِرِحْلَةٍ مُماثِلَةٍ.

وهُنا قَالَ خَالدٌ مُبْتَسِماً:

ـ مَعَكَ حَقٌّ يَا سَلامٌ، رِحْلَةُ مَاليزيا رِحْلَةٌ رَائِعَةٌ، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِقِسْمَتِكِ لِلأُمُورِ، فَهِيَ نِعْمَ القِسْمَةُ، لَكِنْ هَلْ تَشْرَحُ لَنا خِطَّتَكَ؟

يَقولُ سَلامٌ:

ـ أَوَّلاً، قَرَّرْتُ أَنْ أُرَاجِعَ دُروسِي كُلَّها مِنْ بِدايَةِ العَامِ حَتَّى هَذِه العُطْلَةِ، وسَأُخَصِّصُ لِلمُراجَعَةِ كُلَّ يَوم ساعَتَينِ، وفِي باقِي الوَقْتِ أَلْعَبُ وأَمْرَحُ وأَتَعَلَّمُ عُلُوماً عامَّةً، دُونَ أَنْ أَنْسَى مُمَارَسَةَ الرِّياضَةِ، والزِّياراتِ الأُسَرِيَّةَ.

رَأَى خَالِدٌ أَنَّ أَفْكارَ سَلامٍ طَيِّبَةٌ، لَكِنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ تَطْبِيقَها صَعْبٌ، فَكَيفَ سَيَجْمَعُ بَينَ كُلِّ ذَلِكَ؟

فَأَجَابَهُ سَلامٌ:

ـ اشْتَرَكْتُ فِي مَعْهَدٍ لِلْمُراجَعَةِ، كَما أَنِّي مُشْتَرِكٌ مِنْ قَبْلُ في نادٍ رِياضِيٍّ.

يَقولُ حَمَدٌ مُقاطِعاً:

ـ مُراجَعَةُ ماذا؟!

فَيُجِيبُهُ سَلامٌ:

ـ في المَعْهَدِ سَأُراجِعُ معَ المُدَرِّسِينَ كُلَّ دُروسِ

الفَصْلِ المَاضِي، وهَكَذا أَدْخُلُ الامْتِحاناتِ النِّهائِيَّةَ بِقُوَّةٍ.

يَقولُ خَالِدٌ:

ـ كلامُكَ جَميلٌ يَا سَلام. أَنَا عِنْدي مُشْكِلَةٌ بِالرِّياضِيّاتِ، فَهَلْ يُساعِدونَني بِالمَعْهَدِ؟

ـ بِكُلِّ التَّأْكِيدِ.

يَقولُ سَلامٌ ذَلِكَ بِكُلِّ ثِقَةٍ.

عِنْدَها فَكَّرَ الجَمِيعُ بِالاشْتِراكِ فِي المَعْهَدِ، فَقَالَ حَمَدٌ:

ـ شَيءٌ رائِعٌ! هَكَذا نَتَنَافَسُ ونَتَعَلَّمُ ونَتَسَلَّى أَكْثَر.

فَقَالَ خالِدٌ:

ـ نَعَم! لَكِنْ هَلْ يَقْبَلُونَنا فِي النَّادِي أَيْضاً؟

أَجَابَهُ سَلامٌ:

ـ لا تَقْلَقْ، فَأَبي يَعْرِفُ مُديرَ النَّادِي.

حَمَد: مَا أَجْمَلَها مِنْ عُطْلَةٍ! تَسْلِيَةٌ وعِلْمٌ ووَناسَةٌ

ودِرَاسَةٌ وفَرَحٌ ورِياضَةٌ، لَكِنَّ المُهِمَّ أَنْ نَجِدَ أَيْضاً طَرِيقَةً تُمَكِّنُنا مِنَ القِيامِ مَعاً بِرِحْلَةٍ إلى مَاليزيا، عَلَى أَنْ يَكونَ صَالِحٌ دَلِيلَنا فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ.

فَقَالَ الجَمِيعُ بِصَوْتٍ واحِدٍ:

ـ مُوافِقونَ، مُوافِقونَ.

عِنْدَها قَالَ عَبْدُ اللهِ ضَاحِكاً:

ـ بِشَرْطٍ وَاحِدٍ، أَنْ يَكونَ مَعَنا العَمُّ أَبوصَالِحٍ لِيُنْقِذَنا مِنْ أَيِّ وَرْطَةٍ أَوْ مُشْكِلَةٍ يُمْكِنُ أَنْ نَقَعَ فِيها.

فَغَرِقَ الجَمِيعُ في سِلْسِلَةٍ مِنَ الضَّحِكِ المُتَواصِلِ.

النِّهايَـــةُ

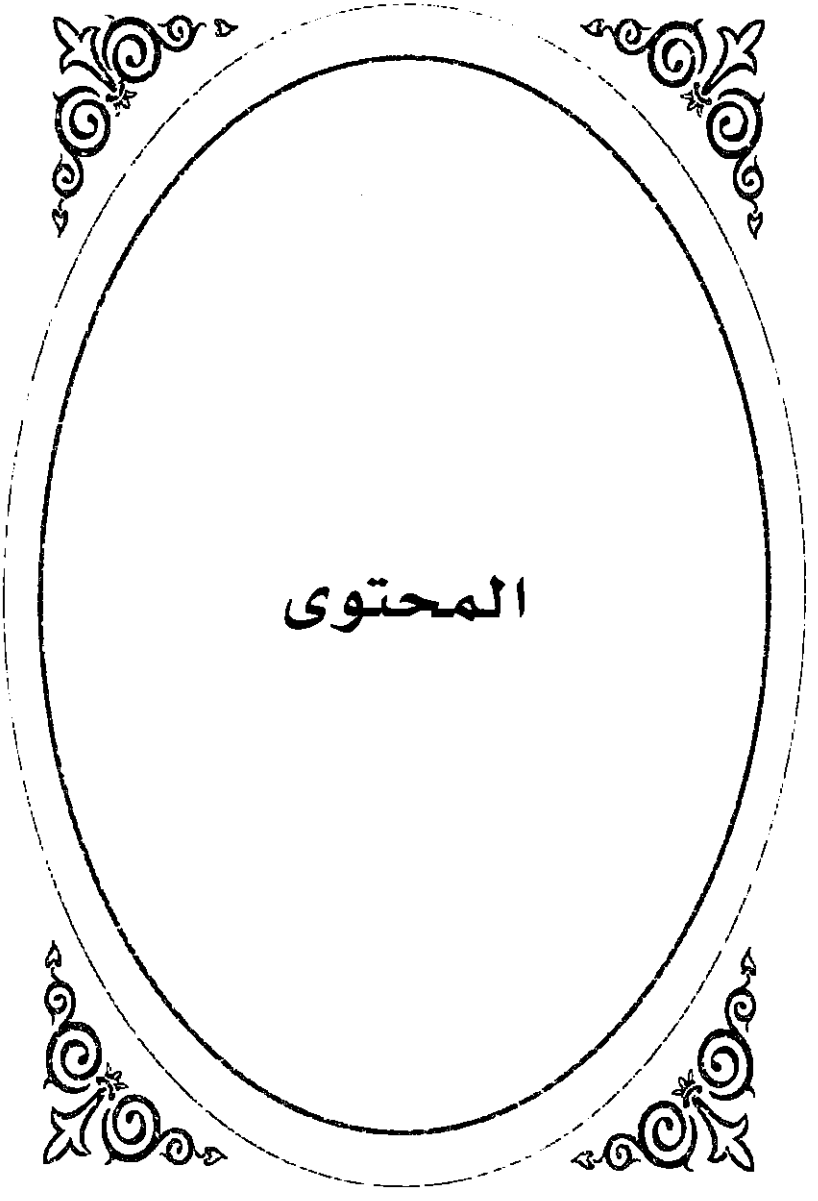

المحتوى

المحتوى

تَقْديم بِقَلَم: النَّاقِد جَمِيل السَّلْحوت ٥

تقديم رِحْلَةٌ إلى مَالِيزيَا ٩

١ ـ مُغَامرَاتِي الرَّائِعَاتُ ١١

٢ ـ يَومُ مِيلادِي العَاشِرُ ٢٣

٣ ـ حَدِيثُ الفَصْلِ ٣١

٤ ـ مَوَاقِفُ مُشَابِهَةٌ ٤٣

٥ ـ عَكْسُ السَّيْرِ ٦١

٦ ـ عَوْدَةٌ إلى الرِّحْلَة ٦٥

٧ ـ صَدِيقُ جَدِّي ٧٧

٨ ـ مِنَ الكُوَيْتِ إلى مَالِيزيَا ٨٥

٩ ـ أَحْلامُ نِهَايَاتِ البَحْرِ ٩٥

١٠ ـ خُرْطومُ المَاءِ ١٠٥
١١ ـ السُّقُوطُ مِنْ فَوْقِ الشُّرْفَةِ ١١٩
١٢ ـ المَشْهَدُ الأَخِيرُ ١٢٧